الباب الرابع

كفاح الفلسطينيين لإقامة دولة مستقلة

كفاح الفلسطينيين لإقامة دولة مستقلة

المؤامرة ضد فلسطين وأهلها:

كما أسلفت في الباب السابق أن المؤامرةَ على فلسطين كانت أكبرَ بكثير من إمكانات الشعب الفلسطيني، إلا أن شعب فلسطين رَفضَ الاحتلالَ البريطانيَّ والمشروعَ الصهيونيَّ، وطالبَ بالاستقلال، وقامت التيّارات الوطنيّةُ والإسلاميّةُ بزعامة الحاج المفتي أمين الحسيني (١٣١١- ١٣٩٤هـ = ١٨٩٣-١٩٧٤م) بالتعبئة الشعبية والتحركات السياسية والثورات العارمة؛ فكانت ثوراتُ القدس ١٩٢٠م، ويافا ١٩٢١م، والبراق ١٩٢٩م، وأكتوبر ١٩٣٣م، و«حركة الجهادية» بقيادة القسّام (محمد عزّالدين القسّام ١٣٠٠-١٣٥٤هـ = ١٨٨٢-١٩٣٥م) و«عصابة الكف الأخضر» ومنظمة «الجهاد المقدس». وتحت ضغط الثورة الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ اضطرّتْ بريطانيا في كتابها الأبيض (مايو ١٩٣٩م) أن تَتَعَهَّدَ بقيام الدولة الفلسطينيّة خلالَ عَشْر سنوات وأن تُوْقِفَ بيعَ الأرض لليهود، وأن تُوْقِفَ الهجرةَ اليهودية بعد خمس سنوات؛ ولكنها تَنَكَّرَتْ لالتزاماتها في آخر ١٩٤٥م، وعادت الحياةُ للمشروع الصهيونيّ من جديد برعاية أمريكية .

في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م أصدرت الجمعيةُ العامّةُ للأمم المُتَّحِدَة قرار رقم ١٨١ بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية (نحو ٥٤٪ للدولة اليهودية، و٤٥٪ للدولة العربية، و١٪ منطقة دولية «منطقة القدس»). وقرارات الجمعيّة العامة ليست قراراتٍ مُلزِمَة حتى ضمنَ مواثيق الأمم المتحدة نفسها، والقرارُ نفسُه مخالفٌ للأساس الذي قامت عليه الأممُ المتحدةُ، وهو حقُّ الشعوب في الحرية وتقرير مصيرها بنفسها، ثم ان الشعب الفلسطيني المعنيَّ أساسًا بالأمر لم تُتِمَّ استشارتُه ولا استفتاؤُه. فضلاً عن الظلم الفادح في إعطاء الأقلية اليهودية الدخيلة المُهَاجِرة الجزءَ الأكبرَ والأفضلَ من الأرض.

سادت شعاراتُ «قومية المعركة»، و«الوحدة طريق التحرير» الفترةَ بين ١٩٤٨-١٩٦٧م، وتَوَلَّت الأنظمةُ العربيةُ بقيادة «جمال عبد الناصر» (١٣٣٦-١٣٩٠هـ = ١٩١٨-١٩٧٠م) زمامَ المبادرة، بينما تَرَاجَعَ الدورُ القياديّ الوطنيّ الفلسطينيّ مُفْسِحًا المجالَ للحلّ العربيّ؛ غيرَ أنّ الأنظمة العربيّة افْتَقَدَتْ المنهجيّة الصحيحة والجديّة والإرادةَ الحقيقيّة للقتال، وَتَبَنَّتِ المقاومةُ الفلسطينيةُ لأسباب تكتيكيّة مرحليّة،

وليس ضمنَ خطّةٍ استراتيجيّةٍ شاملةٍ، وانشغلتْ بدَغْدَغَة عَواطِفِ الجَمَاهِيْر بَدَلاً من إعدادها للمعركة، بينما كان الكيانُ الصهيونيّ «الغَضُّ» يَشْتَدُّ ويزداد قوةً ورسوخًا.([1])

مُنظَّمَةُ التحرير الفلسطينيّةُ:

أُنشِئَتْ «منظمة التحرير الفلسطينية» سنة ١٩٦٤م برئاسة أحمد الشقيرى. وبدعم مُبَاشِر من «جمال عبد الناصر» الذي خَشِيَ أن يُفْلِتَ زمامُ القضيّة من يديه بعد أن بدأت الساحةُ الفلسطينيةُ تموج بالحركات السريّة والتنظيمات، وخصوصًا «فتح» التي تَرْجِعُ جذورها إلى سنة ١٩٥٧م. وهَدَفَتْ «منظمةُ التحرير الفلسطينيةُ» إلى تحرير الأرض المُحْتَلَّة سنة ١٩٤٨م، وشَدَّدَ ميثاقُها على الكفاح المُسَلَّح طريقًا وحيدًا للتحرير، ورَحَّبَ عامّةُ الفلسطينيين بها باعتبارها تجسيدًا للهُويَّة الوطنيّة والكيانيّة الفلسطينيّة بعد تغييب طويل. وفي عام ١٩٦٨م انضمّت المُنَظّمات الفِدَائيّةُ الفلسطينيةُ وعلى رأسها «فتح» إلى «منظمة التحرير الفلسطينية» وتَوَلّى «ياسر عرفات» زعيمُ فتح قيادةَ المُنَظّمة منذ فبراير ١٩٦٩م. وفي سنة ١٩٧٤م أقرَّت الأنظمةُ العربيةُ لمنظمة التحرير الفلسطينية بأنها المُمَثِّلُ الشَّرْعِيُّ الوحيدُ للشعب الفلسطيني، وتَمَّ تمثيلُها في العام نفسه بصفةِ عضوٍ مُرَاقِبٍ في «الأمم المتحدة».

٢٠ كانت حربُ يونيو/ حزيران ١٩٦٧م هزيمةً مُرَّةً للأنظمة العربيّة، ففي بضعة أيام ضَاعَ باقي فلسطينَ فسَقَطتِ الضفةُ الغربيةُ بما فيها القدسُ الشرقيّة، وقطاعُ غَزَّةَ. وتَمَّ تشريدُ ٣٣٠ ألف فلسطيني، كما سَقَطتِ الجولانُ السوريَّةُ (١١٥٠كم٢) وسَيْنَاءُ المصريّةُ (٦١١٩٨كم٢).([2])

تهويد فلسطين وقضيَّة اللاجئين :

وَاصَلَ الكيانُ الصهيونيُّ تهويدَ أرض فلسطينَ بشكل حثيث، وسَعَىٰ لاجتثاث هُويَّتها الإسلامية ومَعَالِمها الحضاريّة، فقد صَادَرَ حَوَالِيْ ٩٧٪ من الأرض التي احتلّها سنة ١٩٤٨م بما في ذلك أراضي وأملاك الفلسطينيين الذين قام بتشريدهم، ومُعْظَم الأوقاف الإسلامية، والكثير من أراضي من بَقِيَ من العرب هناك. وبَنَى الصَهَاينَةُ ٧٥٦ مدينة وقرية استيطانية في الأرض المُحْتَلّة عام ١٩٤٨م. وبعد حرب ١٩٦٧م صَادَرَ الصهاينةُ أكثرَ من ٦٠٪ من مساحة الضفّة الغربيّة وبَنَىٰ فوقها ١٩٢ مُستَعْمَرَةً، كما صَادَرَ ٣٠٪ من مساحة قِطاع غَزَّةَ وبَنَى فوقه ١٤ مُستَوْطَنَة، وبينما حَرَمَ الكيانُ الصهيونيُّ أبناءَ

([1]) فلسطين في انتظار...ص: ٦٠.
([2]) المصدر السابق، ص: ٦١.

فلسطين من العودة إلى أرضهم، فتَحَ أبوابَ الهجرة اليهوديّة إلى فلسطينَ؛ فهَاجَرَ إليها أكثرُ من مليونين و ٨٠٠ ألف يهوديّ خلالَ الفترة ١٩٤٩-٢٠٠٠م، ليبلغ العددُ الكليُّ لليهود حَوَاليْ خمسةِ ملايينَ .

رَكّزَ الصهاينةُ على تهويد مدينةِ القدس، فسَيْطَرُوا على ٨٦٪ منها. ومَلَؤُوْهَا بالمُهاجِرين اليهودِ (٤٥٠ ألف يهودي مقابل ٢٠٠ ألف فلسطيني حسب إحصائيات سنة ٢٠٠٠م)، وفي منطقة القدس الشرقية – حيث المسجد الأقصى – أسكنوا نحو ٢٠٠ ألف يهوديّ بعد أن أحاطوها بسِوَار من المُستَوْطَنَات اليهوديّة يعزلها عن مُحِيْطِها العربيّ الإسلاميّ، وأعْلَنُوا أنّ القدسَ عَاصِمَةٌ أبَدِيّةٌ للكيان الصهيونيّ، واهْتَمَّ اليهودُ الصَّهَاينَةُ بالسَيْطَرَة على المسجد الأقصى. فصَادَرُوا الحائط الغربيَّ للمسجد الأقصى «حائط البراق»، ودَمَّرُوا حيَّ المغَاربَة المُجَاور له، وصَادَرُوا أرضَه، وأنْهَوْا حتى الآن عَشْرَ مَرَاحِلَ من الحَفْرِيَّاتِ تحت المسجد الأقصى، وحَفَرُوا أربعة أنْفَاق بشكل يُهَدِّدُ بانهيار المسجدِ في أيّ لحظة، وتَشَكّلَ نحوُ ٢٥ تنظيم إرهابيّ يهوديّ يهدف إلى تدمير الأقصى وإقامة الهيكل اليهودي مكانَه، وقاموا خلال ١٩٦٧-١٩٩٨م بأكثر من ١١٢ عمل عدائي ضد المسجد الأقصى ، ١٢ منها بعدَ اتفاق أوسلو ١٩٩٣م، وكان أشهرُ الاعتداءات حرقَ المسجد الأقصى في ٢١ أغسطس ١٩٦٩م.

تَمَسَّكَ اللاجئون الفلسطينيون بحقهم في العودة إلى أرضهم، ورَفَضُوا كلَّ مشاريع توطينهم خارجَ أرضِهم والتي وَصَلَتْ إلى ٢٤٣ مشروعًا، ورغمَ أن «الأمم المتحدة» أصْدَرَتْ أكثرَ من ١١٠ قرارات بحق اللاجئين في العودة، إلا أن أيًا منها لم يُنَفَّذْ بسبب إصرار الكيان الصهيونيّ على رَفضِها، وعدمِ جِدّيَّة الدول الكبرى والمُجْتَمَع الدُّوَليّ في إجباره على ذلك، ويبلغ عددُ اللاجئين الفلسطينيين المُهَجَّرين من الأرض المُحْتَلَّة منذ سنة ١٩٤٨م وحتى وقتنا هذا أكثرَ من خمسة ملايين، بالإضافة إلى ما يَقْرُب من نحو مليون فلسطيني من أبناء الضَفَّة والقِطَاع محرومون حقَّ العودة إلى أرضهم، وتُمَثِّل قضيّةُ اللاجئين الفلسطينيين أقدمَ وأطولَ وأكبرَ مَأسَاة إنسانيّة للاجئين في القرن العشرين.

قرار الأمم المتحدة:

تَعَامَلَتِ «الأممُ المتحدةُ» مع قضيّة فِلسْطِين كقضيّةِ لاجئين منذ ١٩٤٩م وحتى بداية السبعيّنيات من القرن العشرين، ومنذ ١٩٧٤م أخَذَتْ تُصْدِر قراراتٍ كثيرةً بأغلبية ساحقة عن الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة بإعطاء الفلسطينيين حقَّ تقرير المصير، وبشرعيّةِ الكفاح الفلسطيني (بما فيه الكفاح المسلح) لاسترداد الحقوق المُغْتَصَبَة، وباعتبار الصهيونيّة شكلاً من أشكال التفرقة العنصريّة، وبحقّ اللاجئين غير القابل للتصرّف في العودة إلى أرضهم؛ لكن الولاياتِ المتحدةَ وحلفاءَها كانوا على استعداد دائم لدعم الكيان الصهيونيّ في رفض هذه القرارات وتجاهلها وإجهاضها، واستخدام حقّ النقض «الفيتو»

لمنع التنفيذ العمليّ لأي منها. في الوقت الذي استخدموا فيه هذه «الشرعية» الدوليّة لإقامة الدولة الصهيونيّة على أرض فلسطين وترسيخ وجودها، مما يَكْشِفُ عن الوجه القبيح الظالم لهذه «الشرعيّة».

مَثّلتِ الفترةُ ١٩٦٧-١٩٧٠م الفترةَ الذهبيّة للعمل الفِدَائيّ والمُقاوَمَة الفلسطينيّة؛ غيرَ أنها حُرِمَتْ منذ ١٩٧١م استخدامَ الساحةِ الأردنيّةِ، ورغم تَرَكُّزِها بعد ذلك في الساحة اللُّبنانيّة إلا أنها عَانَتْ محاولاتِ الاستهداف والاجتثاث خلالَ الحرب الأهليّة اللُّبْنَانيّة ١٩٧٥-١٩٩٠م، وأسْهَمَ العدوانُ الصهيونيّ المُسْتَمِرّ على لبنان، واجتياحُه الجنوبَ اللبنانيَّ سنة ١٩٧٨م وتشكيلُه لجِزَامٍ أمْنِيّ عميل، ثم اجتياحُه الجنوبَ سنة ١٩٨٢م في ضرب البنْيَة التحتيّة للمقاومة وإجبار (م. ت. ف) ومُقَاتِلِيها على الانسحاب من لبنانَ. وبذلك أُغْلِقَتْ كلُّ الحدود العربيّة مع الكيان الصهيونيّ في وجه المُقاوَمَة الفلسطينيّة.

وبشكل عامّ، عَانَتِ الثورةُ الفلسطنية بشدّة من أشقائها العرب «الألدَّاء» واستُنْزِفَتْ طاقاتُها ودماؤها في صِرَاعِها مع الأنْظِمَة العربيّة التي حَاوَلَتْ ترويضَها وضبطَها والتحدُّثَ باسمها والقفزَ فوقَها ، وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م ضدَّ الكيان الصهيونيّ التي حَقَّقَتْ أساسًا انتصاراتٍ معنويّة لمصر وسوريا، واعتبار «منظمة التحرير الفلسطينية» مُمَثّلاً شرعيًّا وحيدًا للشعب الفلسطيني ١٩٧٤م، أخَذَ يَتَضَاءَلُ الشعورُ العربيُّ بالمسؤوليّة تجاهَ فِلَسْطِينَ، وبتوقيع مصر لاتفاقيّات «كامب ديفيد» في سبتمبر ١٩٧٨م خَرَجَتْ أقوى قوّة عربيّة من الصراع العربيّ – الصهيونيّ، ثم إن الحربَ العراقيّة – الإيرانيّة ١٩٨٠-١٩٨٨م، وتَرَاجُعَ الدعم الماليّ الخليجيّ للثورة الفلسطينية بسبب انخفاض أسعار النفط فضلاً عن الاجتياح العراقيّ للكويت ١٩٩٠م، وما نَتَجَ عنه من حرب الخليج وتَمَزُّق عربيّ إسلاميّ واسع، بالإضافة إلى انهيار الاتحاد السوفيتي والكُتْلة الشرقية، كلُّ ذلك أدَّى لإضعاف المقاومة الفلسطينية وتَوَجُّهِ قيادةِ (م.ت.ف) نحوَ التسوية السلميّة، وبالتالي حصر نشاطِها في دائرة «الممكن السياسي»، خصوصًا مع وجود استعداد ذاتيّ لدى قيادة «منظمة التحرير الفلسطينية» للتنازل عن بعض الثَّوَابت مُقابلَ الاستمرار في القيادة وفي تمثيل الفلسطينيين.([٣])

التسوية السلميّة مع الكيان الصهيوني:

مع تَزَايُدِ ضعف «منظمة التحرير الفلسطينية» أخَذَ التيّارُ المُؤَيِّد للتسوية السلميّة مع الكيان الصهيونيّ في الاتساع في أوساط المنظمة إلى أن جاء قرارُها في نوفمبر ١٩٨٨م بالاعتراف بقرار الأمم المُتَّحِدة ١٨١ الداعي لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وقرار مجلس

([٣]) فلسطين في انتظار... ص:٦٧.

الأمن ٢٤٢ الصادر في نوفمبر ١٩٦٧م الذي يَتَعَامَلُ مع قضيّة فلسطين كقضيّةٍ لاجئين، ويدعو لحلّ القضيّة بالطرُق السلميّة. وفي أكتوبر ١٩٩١م دَخَلتْ «منظمة التحرير الفلسطينية» والدولُ العربيّة في مُفاوَضَات سلميّة مُبَاشِرَة مع الكيان الصهيونيّ في «مدريد». وخلال حَوَالَيْ سنتين لم يَستَطِعْ وفدُ المنظمة الرسميّ التوصّلَ إلى اتفاق مع الكيان الصهيونيّ، ولم تَحْدُثْ أيةُ حالةِ انفراج إلا من خلال قناة مُفاوَضَات سرّيّة مختلفة كانت قد فُتِحَتْ في ديسمبر ١٩٩٢م وأدّتْ إلى ما يُعْرَفُ باتفاق «أوسلو» أو «غزة – أريحا أوّلاً»، الذي تَمَّ في «أوسلو» بالنرويج، والذي وَقَّعَتْ عليه رسميًا المنظمة مع الكيان الصهيونيّ في «واشنطن» في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣م.

اعترفتْ قيادة «م.ت.ف» من خلال اتفاق «غزة – أريحا» بحقّ إسرائيل في الوجود، وبشرعيّة احتلالها وملكيّتها لـ٧٧٪ من أرض فلسطين، وتعهّدتْ «منظمة التحرير الفلسطينية» بالتوقف عن المقاومة المُسلّحة والانتفاضة، كما تعهّدتْ قيادة «منظمة التحرير الفلسطينية» بحذفِ وإلغاء جميع البنود الداعية لتحرير كل فلسطين وتدمير الكيان الصهيونيّ من ميثاقها الوطنيّ، وتعهّدتْ أيضًا بحل جميع المشاكل بالطرق السلميّة، وَحَصَلَتْ قيادةُ المنظمة في مقابل ذلك على اعتراف من «إسرائيل» بها باعتبارها مُمَثّلة الشعب الفلسطيني وتُعْطَىٰ حكمًا ذاتيًا محدودًا في قطاع غزّة وأجزاءٍ من الضفّة الغربيّة، على أن يَتِمَّ حلُّ القضايا الرئيسيّة الأخرى خلالَ خمس سنوات.([1])

اتّفاق «غزة – أريحا»:

لم تَحْظَ هذه الاتفاقيةُ إلا بتأييد حركة «فتح» التي تَتَولّى قيادةَ «منظمة التحرير الفلسطينية» وجبهتين صغيرتين لا تمتلكان وزنًا شعبيًا هما «فدا»، و«جبهة النضال الشعبي»، وحتى في حركة فتح نفسها؛ بل وفي قياداتها الأولى هناك تيارٌ اعْتَرَضَ على هذه الاتفاقيّة والاتفاقيّات التالية التي انْبَنَتْ عليها، أمثالُ فاروق القدومي وهاني الحسن وخالد الحسن ومحمود غنيم.. مُعْظَمُ الفصائل والحركات الفلسطينية تَرْفُضُ هذه الاتفاقية وعلى رأسها حركةُ المقاومةِ الإسلاميّةِ «حماس» بالإضافة إلى قُوَى مُهمَّة مثل «الجبهة الشعبية» و«الجبهة الديمقراطية» و«الجهاد الإسلامي»، فضلاً عن سبع منَظّمَات أخرى.

المشروعُ في أساسه صهيونيٌّ يَهْدِف إلى التخلُّص من عِبْء مناطق الكثافة السكانيّة الفلسطينيّة بما تحمله من مشاكلَ أمنيّة واقتصاديّة. وكانت «إسرائيلُ» تَحْلُمُ بالتخلُّص من قِطاع غَزَّةَ الذي يُعْتَبَرُ

([1]) فلسطين في انتظار... ص: ٦٥.

من أكثف المناطق السكانيّة في العالم؛ بل وسبق أن عَرَضَتْه على مصر التي رَفَضَتْ ذلك.

تَفَرَّدَتْ قيادةُ «منظمة التحرير الفلسطينية» بالموافقة على الاتفاق دون الرجوع للشعب الفلسطيني.

الحصيلةُ العمليّةُ للاتفاق إدارةُ حكم ذاتيّ ذاتِ صلاحيّاتٍ تنفيذيّة محدودة مُرْتَبِطة بالاحتلال وتحت هَيْمَنَتِه المُبَاشِرَة. ولا تَمْلِك السيادةَ أو السلطة على الأرض التي تَحْكُمُها، ولا أحقيّة لها بالتشريع إلاّ بالاتفاق مع الكيان الصهيونيّ .

أجَّلَ هذا الاتفاقُ القضايا الرئيسيّة دون أن يتعهّد بأي وضع نهائيّ يُؤَدِّي إلى الاستقلال أو انسحاب الكيان الصهيونيّ من الضفّة والقِطاع، أو تفكيك المُسْتَوْطَنَات الإسرائيليّة أو تسليم القدس الشرقيّة، كما أجَّلَ مَسْألة عودةِ اللاجئين إلى أرضهم. وبعدَ أكثرَ من ١٦ سنة من المُفاوَضَات لم يَتِمَّ حلُّ أيٍّ من القضايا الكبرى، بينما يُسَابِق الكيانُ الصهيونيُّ الزمنَ في تهويد الأرض المُحْتَلَّة تحت يديه دونما احترام لأيّ تعهُّدات أو اتفاقات، ولم تَتَسَلَّم السلطةُ إداريًّا أكثرَ من ٤٢٪ من أرض الضفّة الغربيّة. أصْبَحَتْ إدارةُ الحكم الذاتي مُضْطَرَّةً لقمع وسحق أيّ جهاد وعمليّات مُسَلَّحَة ضدَّ الكيان الصهيونيّ، والقبض على مُجَاهِدِي المُنَظَّمَاتِ الفلسطينيةِ لإثبات «حُسْن نَوَايَاها» وحرصها على «السّلام»، وتَشَكَّلَتْ لها تسعةُ أجْهِزَة أمنيّة تُحْصِي على الناس أنفاسَهم، بينما فَشِلَتْ في الميادين الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة واسْتَشْرَى الفسادُ في أجْهِزَتِها.

فَتَحَ هذا الاتفاقُ البابَ على مِصْرَاعَيْه للدول العربيّة والإسلاميّة لعقد تفاقيات وبناء عَلاقات مع الكيان الصهيونيّ، وأعْطى الفرصة للتَّغَلْغُل الصهيونيّ في المنطقة، وتحقيق الهَيْمَنَة الاقتصاديّة، وضربِ القُوَى الإسلاميّة والوطنيّة في المنطقة .

وبهذه الاتفاقيّة شَطَبَتْ «منظمةُ التحرير» نفسَها وأهدافها وميثاقها وتعهدتْ بنبذ كِفاحِها المُسَلَّح الذي أصْبَحَ يُسَمَّىٰ «إرهابًا»، واحتفلتْ «إسرائيلُ» بموافقة قيادةِ «منظمة التحرير الفلسطينية» بوصفها مُمَثِّلاً للشعب الفلسطينيّ على اغتصابِ إسرائيلَ لأرض هذا الشعبِ وتشريدِه ومصادرةِ حقوقِه .

لقد أفْتَى علماءُ المسلمين الموثوقين بعدم جواز التسوية السلميّة مع الكيان الصهيونيّ، حسبما يريد الدَّاعُون إليه، وبضرورة الجهاد المقدس لتحرير الأرض المُغْتَصَبَة وإرجاعِها كاملة تحت راية الإسلام، وباعتبار هذه المعركةِ بين حق وباطل تَتَوَارَثُها الأجيالُ حتى يأذنَ اللهُ بالنصر والتمكين، ولا يجوز لجيل إن انْتَابَه حالةُ ضعفٍ أن يَحْرِمَ الأجيالَ القادمة حقَّها، كما أن قضيّة فلسطين هي قضيّةُ كلّ المسلمين الذين يَرْفُضُون التنازلَ عن حقهم فيها مَهْمَا طال الزمنُ، وليستْ قضية الفلسطينيين وحدَهم

فضلاً عن أن تكون قضيَّة «م.ت.ف» أو قيادتها.(*)

انتفاضة الأقصى الأولى :

أعطتِ الانتفاضةُ المباركةُ ١٩٨٧-١٩٩٤م زمامَ المبادرة للداخل الفلسطيني، وبرز التيّارُ الإسلاميّ بقوة ليعود عنصرًا أساسيًا في المقاومة الفلسطينية، وخصوصًا من خلال المقاومة الإسلامية حماس، وأحْيَتِ الانتفاضةُ التعاطفَ والاهتمامَ العربيَّ والإسلاميَّ والدوليَّ بالقضيّة الفلسطينيّة، لكنّ الظروفَ السائدةَ والعقليّاتِ القياديّة الفلسطينية والعربيّة لم تَسْمَح بتأجيجها وتوسيعها باتجاه التحرير، وإنما استَخْدَمَتْها للاستثمار السياسيّ السريع باتجاه التسوية مع الكيان الصهيونيّ الغاصب.

أكّدَتْ انتفاضةُ الأقصى الأخيرةُ التي بدأت في شهر سبتمبر ٢٠٠٠م حتى الآن، تَمَسُّكَ الشعب الفلسطينيّ بحقه في أرضه، وأكّدَتْ تفاعلَ الشعوب الإسلاميّة الواسعَ مع الانتفاضة والبعدَ الإسلاميَّ للقضيّة، وكَشَفَتْ شراسة الصهاينة والوجهَ القبيحَ لأدْعِيَاء السلام الصهيونيّ، كما وَجَّهَتْ لطمة كبيرةً لمشروع التسوية، الذي يجري على حساب حقوق الأمة وثوابتها.

إن القضية الفلسطينية قضية ذاتُ أبعادٍ إنسانيّة كبرى، إذ تُمَثِّلُ صرخة المظلوم في وجه أدْعِيَاء حقوق الإنسان، وتَكْشِفُ المعاييرَ المُزْدَوجَة وسوءاتِ النظام الدولي الجديد، وتُزْري بالنفاق المَقِيْت لحضارةٍ تَزْهُو بالتقدّم والمعرفة والتكنولوجيا وتَرْعَىٰ حقوقَ الحَيَوَان، بينما تَتَقَبَّلُ أن يُرْمَى خمسةُ ملايين لاجئ في العَرَاء، وأن تَحُلَّ جماعاتٌ يهوديّة من أشتات الأرض وفق دعاوى بالية – لا تتوافق مع مَنْطِق التاريخ ولاقِيَم المدنيّة الحديثة ولا القوانين الدوليّة – مكانَ قوم عَمَرُوا الأرضَ منذ ٤٥٠٠ عام، وأن تُسْفَك الدِّمَاءُ في الأرض المُقَدَّسَة، التي يجب أن تكون أرضًا للمحبّة والسلام. إن الحركة الصهيونيّة واحتلالها لفلسطين هي النموذجُ المُتَبَقّي للاستعمار التقليديّ الأوروبيّ الغربيّ الذي زال عن أرجاء العالم، ويجب أن يزول عاجلاً أم آجلاً عن فلسطين .

إنّ وجودَ الكيان الصهيونيّ في فلسطين – قلب العالم الإسلامي – وحَشْدَه لأسلحة الدَّمَار الشامل بما فيها ٢٠٠ قنبلة نوويّة، وقدرتُه على تَعْبئَةِ جيش يصل إلى المليون خلال ٧٢ ساعة، سوف يظلّ الفتيلَ المُشْتَعِل الذي يُهَدِّد السلامَ العالميَّ بالانفجار، ويُهَدِّدُ بحرب عالميّة ثالثة؛ فالمسلمون سيملكون يومًا ما أسبابَ القوة وأسلحة الدمار الشامل. وهم لم ولن يَتَنَازَلوا عن أرضهم ولن يَقْبَلوا كيانًا في قلبهم يُضْعِفُهم ويُمَزِّقُ وحدتَهم، وسيَسْعَوْن لإزالته كما أزالوا غيرَه من قبلُ، وعند ذلك ستعلم القوى الكبرى أن الظلمَ الذي اقْتَرَفَتْه بإيجاد هذا الكيان سيجلب على الإنسانية الموتَ والدَّمارَ، وخيرٌ لهذا الكيان أن

(*) فلسطين في انتظار... ص:٧٩.

يَتَفَكَّك قبل أن تأتي تلك اللَّحَظاتُ الرهيبة.([٦])

الانتفاضة الثانية:

يَوْمَ الخميس: ٢٧/جمادى الثانية ١٤٢١هـ الموافق ٢٨/سبتمبر ٢٠٠م قام زعيمُ حزب «الليكود» اليمينيّ الصهيونيّ «إرئيل شارون» بتدنيس المسجد الأقصى بزيارته له ضمن خطة مكشوفة لتمهيد هدم الأقصى وبناء الهيكل المزعوم مكانه محروسًا بثلاثة آلاف شرطيّ صهيونيّ؛ فقاوم الشبابُ الفلسطينيُّ البَاسِلُ خصوصًا والشعبُ الفلسطينيُّ عمومًا هذه الجريمة الشارونيّة النكراءَ بأجسامٍ عاريةٍ، فسَقَطُوا قَتْلىٰ وجَرْحَىٰ، فانْدَلَعَتْ انتفاضةُ الأقصى الثانية، التي ظَلَّتْ مُنْدَلِعَةً عَبْرَ هذه السنوات الطويلة، وقد قاوَمَتْها القواتُ الصهيونيّة بآلاتها الحربيّة الأمريكيّة المُدَمِّرة، مما حَصَدَ أرواحَ مئات من الشباب والأطفال والسَّيِّدات والبنات والعَجَائِز والشيوخ من الفلسطينيين، وأعْمَلَتْ دولةُ الكيان الصهيوني سياسة التجويع والتعطيش والتعرية والتشريد والنَّفي والاعتقال والتعذيب إلى هدم المنازل وَجَرْفِ الأراضي وجميع أنواع العقاب الجسمانيّ والنفسيّ لتركيع الشباب والشعب الفلسطيني؛ ولكنه لم يَسْتَسْلِمْ رغمَ جميع المَجَازِر الوحشيَّة وأصناف التعذيب المبتَكَر التي جَرَّبَتْها في الفلسطينيين دونما مخافة من مُحَاسَبَة الرأي العالميّ، والمُجْتَمَع الدوليّ، أو ما يُسَمَّى بـ«الأمم المتحدة».

وَبَلَغَ عددُ شهداء الأقصى – حسبما أعْلَنَتِ الهيئةُ العامَّةُ للاستعلامات في غَزَّةَ في تقرير لها – ٤٢٤٢ شهيدًا، وبلغ عددُ الجرحى ٤٦٠٦٨ جريحًا، وعدد الأسرى أكثر من ٩٢٠٠ أسير، بينهم ٣٠١ من الأطفال دون ١٨ عامًا. وذلك منذ اندلاعها في ٢٨/سبتمبر ٢٠٠٠م (٢٧/جمادى الثانية ١٤٢١هـ) حتى ٣٠/يونيو ٢٠٠٦م (٣/جمادى الثانية ١٤٢٧هـ) وبلغ عدد الشهيدات الفلسطينيات حسب تقارير أوائل ٢٠٠٥م أكثر من ٢٧٥ شهيدة.

وبلغت خسائرُ هدمِ المنازل وإفساد الطُّرُق والمباني العامة أكثر من ٣٠٠ مليون دولار؛ حيث تَمَّ هدمُ أكثر من٥٠٠٠ منزل بحيث لم تَعُدْ صالحة للسكنى، وبلغ عددُ المنازل المهدومة جزئيًّا أكثر من ٥٠٥٠٠. والاعتداءاتُ الصهيونيةُ على القطاع الزراعي الفلسطيني أدَّتْ إلى تَضَرُّر أكثر من ١٤٠٠ مزرعة، وصَادَرَتْ قُوَّاتُ الاحتلال أكثرَ من ٢٠٨٧٠٥ دونمات من الأراضي الزراعيّةِ وغير الزراعيّة لصالح الجِدَار العنصريّ، بَلَغَ إجماليُّ الأراضي التي تَمَّ تجريفها ٦٨٧٢٨ دونمًا.

واقْتَلَعَتْ قواتُ الاحتلال خلالَ انتفاضة الأقصى لحد عام ٢٠٠٤م ١١٤٥١٤٥ شجرة، وهَدَمَتْ

([٦]) الأستاذ الدكتور محسن محمد سليمان صالح: «فلسطين بلادنا الحبيبة» مؤسسة الفلاح، القاهرة، مصر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، نقلا عن فلسطين في انتظار...ص: ٧١.

أكثرَ من ٣٥٠ بئرًا بملحقاتها، ودَمَّرَتْ أكثرَ من ١٢٠٠ برْكَة وخَزَّان للمياه، وهَدَمَتْ أكثرَ من ٦٠٠ مخزن زراعيّ، كما جَرَّفَتْ شبكاتِ للريّ تُزَوِّدُ أكثرَ من ٢٥٢٨٥ دونمًا، وأكثر من ١٠ مشاتل زراعية، وأتلفتْ أكثرَ من ١٥ جرَّارًا زراعيًّا. وقتَلتْ أكثرَ من ١٥٠٠٠ رأس من الأغنام والماعِز، وأكثر من ١٣٩٩٠ من البقر وحَيَوَانات مَزَارع، وأكثر من ٩٠٠٣٤٥ دَجَاجَة لاحِمَة، وأكثر من ٤٠٤٠٢٩ دجاجة بَيَّاضَة، وتَمَّ إتلافُ ١٥٠٦٥ خَلِيَّة للنحل.

وعلى صعيد القطاع الصِّنَاعيّ، وَصَلَ عددُ المُنْشَآت التي تَمَّ تدميرُها بالكامل لحدّ عام أواخر ٢٠٠٤م أكثر من ٩٠٠٧٨ محلاً وورشةً وبَلَغَ عددُ العاطلين عن العمل أكثر من ٣٠٠ ألف عامل، وتَخَطَّت نسبةُ العاطلين عن العمل أكثر من ٣٣،٣٪، ووصلت نسبة الفقر ٦٨،٦٪.(٧)

١١ ألف فلسطينيّ في سجون إسرائيل بينهم ٣٣٠ طفلاً و ١١٨ فتاة وأمًّا:

أكَّدَتْ وزارةُ شؤون الأسرى في السلطة الفلسطينية، أن قوات الاحتلال الإسرئيلي اعتقلت منذ احتلالها الأراضيَ العربية عام ١٩٤٨م قرابة ٨٠٠ ألف مُوَاطِن، أي ما يُقَارِبُ ربعَ المواطنين الفلسطينيين .

وأضافت: أن قوات الاحتلال اعتقلتْ أكثرَ من ٤٢ ألف مواطن فلسطيني خلال ست سنوات من انتفاضة الأقصى، بالإضافة إلى عشرات الآلاف ممن اعْتُقِلوا سابقًا واحْتُجِزُوا لفترات قصيرة، ومن ثَمَّ أُطْلِقَ سَرَاحُهم، منهم ٣٤ نائبًا في المجلس التشريعي مازالوا خلف القُضْبَان من أصل ١٣٢ نائبًا مجموع أعضاء المجلس التشريعي، وأربعة وزراء سابقين، هم وزير المالية عمر عبد الرازق، و وزير الحكم المحليّ عيسى الجعبري، و وزير شؤون القدس خالد أبو عرفة، ووزير الأوقاف نايف الرجوب. كذلك تحتجز سلطاتُ الاحتلال رئيسَ المجلس التشريعي الدكتور عزيز دويك وأمين سر المجلس التشريعي محمود الرمحي.

وأكَّدَتِ الوزارة، أنه لايزال في سُجُون ومُعْتَقَلات الاحتلال الإسرائيليّ، قرابة ١١ ألف أسير، مُوَزَّعين على ثلاثين سجنًا ومعتقلاً ومركز توقيف، منهم ٩٤٢٨ من الضفة الغربية، و ٨٥٠ من قطاع غزة، و٥٢٥ من القدس، و ١٤٢ من فلسطينيي ١٩٤٨م، و٥٥ أسيرًا عربيًا. وعن الحالة الاجتماعية للأسرى هناك ٧٥٨٢ أسيرًا أعزب، و ٣٤١٨ أسيرًا متزوجا؛ وعن الأحكام هناك ٥٢١٦ أسيرًا محكومًا، و ٤٨٨٤ أسيرًا موقوفًا، و٩٠٠ أسير إداريّ، يعيشون ظروفًا قاسية؛ حيث تفتقر هذه السجونُ والمعتقلات لمُقوِّماتِ حقوق الإنسان، التي نصّتْ عليها الاتفاقيّاتُ والمواثيقُ الدولية، مشيرةً إلى أن من

(٧) رسالة الإخوان، لندن، العدد: ٣٨٨، نقلا عن فلسطين في انتظار... ص: ٧٤.

بين الأسرى ٥٥٣ مُعْتَقَلاً منذ ما قبل انتفاضة الأقصى، ما زالوا في الأسر، وأن جزءًا من هؤلاء الأسرى، مُعْتَقَل منذ ما قبل اتفاقيّة «أوسلو» وقيام السلطة الفلسطينية في عام ١٩٩٤م، وهم من يُطْلَقُ عليهم «الأسرى القدامى» وعددُهم ٣٦٧ أسيرًا.

وفيما يتعلق بالأسيرات أشار التقديرُ إلى أن ١١٨ أسيرة من أصل ٦٠٠ تَمَّ اعتقالهنّ خلال انتفاضة الأقصى، من بينهن ٣ أسيرات وَضَعَتْ كلٌّ منهن مولودَها داخلَ الأسر، خلالَ انتفاضة الأقصى، وهن: ميرفت طه، ومنال غانم، وسمر صبيح. ومن بين الأسيرات ٦٢ أسيرة محكومة، و٥٠ أسيرة موقوفة، و ٦ أسيرات إداري.

أما الأطفالُ الأسرى، فقد اعْتَقَلتْ سُلطاتُ الاحتلال أكثر من ٦٠٠٠ طفل منذ بداية انتفاضة الأقصى، لا يزال منهم ٣٣٠ طفلاً في الأسر مُوَزَّعين على العديد من السجون والمعتقلات، أبرزها هشارون والدامون والنقب، وأن هناك المئات اعْتُقِلوا وهم أطفال وتجاوزوا سنَّ ١٨ داخلَ السجن ولا يزالون في الأسر.

وأكَّدَ التقريرُ أن ٩٨ في المائة من الأسرى تَعَرَّضُوا لأحد أشكال التعذيب الجسدي أو النفسي أو أكثر.

وأكَّدَ التقريرُ أنه منذ اندلاع انتفاضةِ الأقصى تَصَاعَدَتْ سياسةُ اعتقال الفتيات الفلسطينيات من قبل جنود الاحتلال؛ حيث إن أكثر من ٦٠٠ أسيرة تَمَّ اعتقالُهن خلالَ السنوات السابقة، ما زال منهن ١١٨ أسيرة داخلَ السجون، مُشِيْرَةً إلى أنه تُوْجَدُ بين الأسيرات الفلسطينيات ١٨ أسيرةً أمًّا وعددُ أبنائهن أكثر من ٦٥، وهناك ست أسيرات في العزل الانفرادي.

وقال: إن قوات الاحتلال اعتقلت منذ بداية انتفاضة الأقصى ما يزيد عن ٦ آلاف طفل فلسطيني، ومازالت تحتجز ٣٣٠ طفلاً منهم في ظروف تفتقر إلى الحد الأدنى من شروط الحياة الأساسية، منهم ١٩٣ طفلاً موقوفاً، و٨ أطفال بدون تهمة، و١٢٩ طفلاً محكومًا، كما يوجد بينهم حوالي ٥٠ طفلاً يعانون من أمراض مختلفة نتيجة الإهمال الطبيّ الذي تتبعه إدارة سجون الاحتلال.(٨)

مكاسب الانتفاضة:

في جانب آخر نَجَحَتِ المقاومةُ الفلسطينيةُ خلالَ سنوات الانتفاضةِ في توجيه ضَرَبَاتٍ مُوْجِعَةٍ للاحتلال الصهيونيّ، تَألَّم منها شديدًا. ذلك على الرغم من أن الكيانَ الصهيونيَّ يمتلك أكبرَ تَرْسَانَةٍ عسكرية مُتَطَوِّرَةٍ في المنطقة، ولم يتردّد لحظةً في استخدامها ضدَّ الأطفال والنساء والشيوخ في شتى أنحاء الأراضي الفلسطينية.

---

(٨) رسالة الإخوان، لندن، العدد: ٥٠١، نقلا عن فلسطين في انتظار... ص:٧٦.

اعْتَرَفَ البنكُ المركزيّ الصهيونيّ بأنّ الانتفاضة الفلسطينية وعمليّاتها الاستشهادية أدّتْ إلى ارتفاع مُعَدَّلات البطالة، لتصل إلى ١١٪ من مجموع القوى العاملة . كما أدّى ذلك إلى تأخّر المُوَظّفين الصَهاينَة عن دفع أقساط منازلهم، ممّا اضْطرَّ البنوكَ إلى الاستيلاء على تلك البيوت!.

وقد نشرت مجلة «Jerusalem reports» العبريّة مقالاً مثيرًا للدهشة بتاريخ ٢١/ سبتمبر ٢٠٠٤م تحت عنوان «شَحّاذون في أرض الميعاد» وبه صورةٌ لشابّ يهوديّ قد مَدَّ يدَه للتسوُّل عَبْرَ التّلفاز، وبَدَتْ على وجهه علاماتُ الذلّة والمسكنة. وقالت: إنّ الفضائح امْتَدَّتْ لتصل إلى القناة الثانية الإسرائيلية التي دَشَّنَتْ برنامجًا خيريًّا لجمع التبرعات لمُوَظّفي حكومة «شارون» الذين لم يَتَقاضَوْا رواتبَهم* منذ عدة أشهر وطُرِدُوا من منازلهم.

كما تَفَشّى الفقرُ بصفة مُدْهِشَةٍ؛ حيث نُشِرَتْ دراساتٌ أُخِذَتْ عن مُؤَسَّسة التأمين الوطني الإسرائيلي مُفَادُها: أنّ إسرائيلَ تمرّ بأكبر أزماتها الاقتصاديّة منذ الخمسينيات، وأنّ ١٩٪ من سكانها البالغ عدده ٦،٧ مليون نسمة، أي حوالي ١،٢ مليون يعيشون دون خطّ الفقر.

وأعدَّتْ دائرةُ الإحصاء المركزيّة الإسرائيلية تقريرًا قالت فيه: إن ٤٦٪ من سكان الكيان الصهيونيّ عَجَزُوا عن تغطية نفقاتهم* الشهريّة الخاصة بالمأكل والمشرب والكهرباء والمياه والغاز.

وكَلّفَتِ الانتفاضةُ الصهاينة – حسبما ذكرت صحيفة «هآرتس» العبرية في أحد تقاريرها في شهر مارس ٢٠٠٤م – حَوَاليْ ٧ بلايين دولار منذ انطلاقتها في سبتمبر ٢٠٠٠م.

تَحُولُ المساعداتُ الأمريكيّة التي تُقَدَّرُ بـ ٨ مليارات دولار سنويًّا دون الانهيار المُفاجئ للاقتصاد الصهيونيّ. وارتفعت تلك المساعداتُ بعد الانتفاضة بضغط من الجماعات الإنجيلية داخلَ الولايات المتحدة. وتعود معظمُ تلك الأموال إلى أمريكا وأوربّا في صورة رؤوس أموال هاربة من إسرائيل بحثًا عن فُرص استثماريّة آمنة . وهو ما لا يتوافر داخلَ الكيان الصهيوني.

ودفعتِ الأوضاعُ الأمنيّة المُتَدَهْوِرَةُ آلافَ المستوطنين الصهاينة في الضفة وقِطاع غَزَّةَ إلى إخلاء المُغْتَصَبَات والبحث عن أماكن بديلة داخل الكيان الصهيوني (٩).

٣٨ ألف عمليّة نفّذتها المُقاوَمَة الفلسطينية خلالَ انتفاضة الأقصى

وحسب «قدس برس» من القدس المُحْتَلّة إعترف رئيسُ جهاز الاستخبارات الإسرائيليّ أنّ

(٩) رسالة الإخوان ، لندن ، العدد: ٣٨٨، نقلا عن فلسطين في انتظار...ص: ٧٨.

العمليّاتِ الفلسطينيّة التي نُفّذتْ خلال سنوات الانتفاضة الماضية أسْفرَتْ عن مقتل أكثرَ من ١٠٤٨ إسرائيليًا، وهو عددٌ أقلُّ مما أعلنَه مَصَادِرُ عِبْرِيَّة وإحصاءاتُ المُستَوْطِنين، الذي تجاوز الـ ١٣٠٠ قتيل على أقلّ تقدير.

وقال رئيسُ الاستخبارات «يوفال ديسكن» أمامَ أعضاء لجنة الخارجيّة والأمن التابعة للبرلمان الإسرائيليّ في تقرير أجْمَلَ فيه العمليّاتِ الفلسطينية خلالَ سنوات الانتفاضة الماضية من عام ٢٠٠٠م حتى الشهر السابع من ٢٠٠٥م نُفّذتْ ٢٥،٣٧٥ عمليّة، منها ١٤٢ عمليّة فِدَائيّة قُتِلَ فيها ١٠٤٨ إسرائيليًا، وأصيب نحو ٥،٦٠٠. وشَارَكَ في العمليّات هذه ١٨ ألف فلسطينيّ و ٢٢٥ من فلسطينيي ١٩٤٨م، وكان من المشاركين فيها ١٣ امرأة، وفجَرَّتْ أنفسهنّ ثماني نساءٍ فلسطينياتٍ. واعْتَرَف رئيس الاستخبارات الصهيونيّ أنّ ٩٠٪ من الـ ١٨ ألف فلسطيني الذين شاركوا في العمليّات ضدَّ الاحتلال كانت أعمارُهم تَتَرَاوحُ بين ١٦ و ٣٥ عامًا ([١٠])

الانسحاب من غزة :

الانسحاب من غزة كان سرابًا لذرّ الرماد في العيون. وغزّةُ لاتتعدى مساحتُها ١،٣٪ من مساحة فلسطين، و لا يتعدى عددُ المغتصبين فيها من اليهود ١،٦ من إجماليّ عددهم في الضفة الغربية. والذي صوَّره الاحتلالُ للعالم كتنازل كبير من جانب الكيان الصهيونيّ المُحْتَلّ وحقيقةُ الانسحاب تجاوزُ أسس عملية السلام والمفاوضات والقانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية، بما في ذلك الاتفاقاتُ الفلسطينية – اليهودية الثنائية ، وخريطةُ الطريق؛ فكانت عملية مستقلة بذاتها أسقطتْ الحلَّ المتفاوضَ عليه، وألغتِ الطرفَ الثانيَ من الصراع، وفرضت حلاً أحَاديًا، وفرضتِ السيطرةَ على مَجْرَيَاتِ الأمور في قطاع غزة ؛ فإقامة أي فلسطيني في قطاع غزة وعدمُ إقامته مرتبطان بموافقة الكيان الصهيوني، وكذلك حق العودة إلى قطاع غزة لا يملك الطرفُ الفلسطيني منحَه لأي فلسطيني، مما يتنافى مع فكرة الانسحاب من قطاع غزة، ويؤكد سيطرةَ الاحتلال على القطاع سيطرةً كاملةً وعن بعد؛ حيث حوَّل غزةَ إلى سجن كبير يَعْتَقِل فيه الفلسطينيين، ويُفْشِلُهم في إدارة شؤون حياتهم، ويدفع الفصائلَ إلى الاقتتال الداخليّ كما نعيش ونشاهد الآن.. وفي تعليق دقيق للكاتب والمُحَلّل العبري «ناحوم برنياع» قال: «وُضِعَ أمامَ الفلسطينيين مِصْيَدَةُ غزّة وقد سَقَطوا في داخلها، لإثبات فشل السلطة في غزة وجاءت النتيجةُ فورية». وبالفعل أظهروا للجميع صورةً مقابلة لصورة غزّة في ظلّ الوجود اليهودي، لإثبات أن أوضاع غزة في ظل الاحتلال أفضل بكثير من أوضاعها في ظل السلطة والحكومة؛ ولهذا رَكّزت المَشَاهِدُ على

([١٠]) رسالة الإخوان ، لندن ، العدد: ٤٢٤، نقلا عن فلسطين في انتظار...ص:٧٩.

الانفلات الأمني والاقتتال الداخليّ الذي طالما عَمِلوا على تحقيقه بين الحركات الفلسطينية.([١١])

الانتخابات الفلسطينية:

الانتخابات في فلسطين كانت أيضًا خديعة من الخدائع؛ حيث قالوا لا بدّ من أن تكون في أراضي السلطة وفي فلسطين انتخابات نزيهة ترعاها الرُّباعِيَّة. والحقيقة التي يجب أن تُعرف لمن قرأ التاريخَ المعاصرَ أن مأساة فلسطين لم تبدأ بفوز هذا أو ذاك؛ بل هي مسيرةُ ظلم عَانَاهُ الفلسطينيون خلال أكثر من مائة سنة، وبكل خُبْث جعلوا الحكومة الجديدة مع كل التحديات والأعمال التي تُوَاجِهُهَا في أصْعَبِ وأطْوَلِ قضيّة في العالم المُعَاصر.. جعلوها تنشغل في مشكلة كَيف ستوفر رغيفَ الخبز للملايين.. وكيف توفر الأمنَ والأمانَ لمُوَاطِنِيها وتمنع سفكَ الدماء الذي تدفع له أطرافٌ عِدَّة .

فأين القانونُ الدوليُّ والنظامُ العالميُّ بكل مُؤَسَّسَاته من حكومة مُنْتَخَبَة يُسْجَن وزراؤُها، ويُعتقل رئيسُ مجلسها التشريعي ونائبُ رئيس الوزراء، ويُهَدَّد رئيسُ وزرائها بالقتل؟! أهكذا تكون رعاية الديموقراطية في المنطقة؟! أهذا هو «الشرق الأوسط الجديد» الذي بُشِّرَتِ المنطقة به؟!! ولماذا شكلوا لجانَ مراقبة الانتخابات وأتعبوهم في رعايتها؟! إن كانوا يعلمون أن من انتُخب منهم سيُزَجُّ به في السجن ويُسْلب حريتَه وكلمتَه؟! ولماذا لم نَسْمَعْ منهم كلمة استنكار أو وقفة قانونية أو إنسانيّة على الأقل؟!! ولعلَّ الجوابَ الوحيدَ «كلُّهم مُشَاركون في الجريمة»!!([١٢])

أبرز الملاحظات حول الانتخابات وما أدّت إليه وسلوك العالم مع النتائج:

في ٢٠٠٦/١/٢٥م (الأربعاء: ١٤٢٧/١٢/٢٤هـ) جَرَتْ انتخاباتُ المجلس التشريعي الفلسطيني، فازَتْ فيها «حماس» (حركة المقاومة الإسلامية) بأغلبيّة سَاحِقَة؛ ولكنَّ أمريكا وإسرائيل والمُجْتَمع الدوليّ حالت دونها ودون أن تُمَارسَ الحكمَ، وضَرَبَتْ في ذلك عُرْضَ* الحائط جميعَ المبادئ* الديموقراطيّة التي تُطبّل لها* وتُنَادِي بها، مما أكّدَ أنها لاتؤمن بها ولا تَسْمَح لها بأن تَتَحَقَّق إلا إذا أدَّتْ إلى تحقُّق مصالحها. أمّا إذا وَجَدَتْها تَعْتَرض سبيلَ مصالحها؛ فإنّها تَرْفُضُها تمامًا، وتَقْذِف بها في سَلَّة المُهْمَلات. إنّ أمريكا وإسرائيلَ والدولَ الدائرة في فلك أمريكا لن ترجوَ من «حماس» الإسلامية ما ترجوه من «فتح» العلمانيّة؛ من هنا زَرَعَتْ في سبيلها العراقيلَ. وعندما شَكّلَتِ الحكومة، امتنعتْ عن دفع أيّ دولار من المُسَاعَدات التي كانت تُغْدِقُها على «فتح»* كما امتنعتْ إسرائيلُ عن تقديم مَبَالِغ الضَّرَائب* التي ظلّ يدفعها الشعب الفلسطيني لصالح سُلطته وإدارته، وجَمَّدَتْها لديها في البنوك؛ حتى ينسدّ الطريقُ أمام حماس من قلّة الإمكانيات، فتَنْزَعِجَ* وتنسحب من الحكم والسلطة اللذين وَصَلَتْ إليهما

([١١]) فلسطين في انتظار...ص: ٨٥.
([١٢]) فلسطين في انتظار...ص: ٨٦.

بالتصويت الشعبيّ الحاسم لصالحها. الأمرُ الذي أكّدَ للأصدقاء والأعداء معًا أن الشعبَ الفلسطينيَّ لا يُحِبّ إلا الإسلامَ ولا يَرْضَى لتحرير فلسطين ولتقرير مصيره إلا طريقَ المُقاوَمَة والنضال، وتَرْفُضُ طريقَ السلام والاستسلام الذي ما جَنَىٰ منه إلا ثمارًا مُرَّة للغاية.

وقد صَدَقَ الدكتورُ محمد أبوحشيش / الوكيل المساعد بوزارة الإعلام الفلسطينية في حكومة «حماس»، إذ قال: إن كلَّ المُعْطَيَات والدلائل تشير إلى أن أية حكومة تعرّضت لأقل من نصف ما تعرضت له هذه الحكومة لابد أن يكون الفشل الفوريّ والسريع هو مصيرَها، ومن المُفْتَرَض ألا تمكث لا شهرًا ولا ثلاثة أو ستة أشهر، ولكن نظرًا لأن الحكومة الفلسطينية العاشرة تستند إلى قاعدة شعبيّة وجماهيريّة واسعة، ولكونها خرجت من رحم المعاناة والجماهير، ولم تُفْرَض بالقوة، ولم تأتِ على ظهر دبابة، فإنها ضَرَبَتْ نموذجًا مُشَرِّفًا في الصمود والصبر والإصرار على خدمة الرأي العام رغمَ ما تتعرض له يوميًّا من حصار خارجيّ شامل، وتحركات داخلية متنوعة ومتصاعدة، وتشويه إعلامي ركناه: الإفك والكذب، والتخاصم مع الأخلاق والقيم والوطنية والمسؤولية الاجتماعية. وهذه زاوية جديدة لأجلها تستحق الحكومة كظاهرة سياسية الدراسة والتوثيقَ بجانب غرابة وتنوع المؤامرة منذ اللحظات الأولى .

إن الإصرار الحاصل من قبل الحكومة بقيادة حماس لم يكن ركوبًا للرأس، وعنادًا فارغًا، وتمسكًا بالمناصب، ولم يكن مصحوبًا بصمت وعجز وندب حظّ كما يشاع ويُرَوَّج، بل كان مقرونًا بعمل دؤوب في ظل أسوأ الظروف، وأحلكها وأعقدها. وأعتقد أن حماس من خلال أداء وزرائها وطواقمهم حققت إنجازات استراتيجيّة لصالح القضية الفلسطينية، واعْتَرَفَ بها كلّ من نظر بإنصاف لهذه المرحلة ، سواء كان مُؤَيِّدًا لحماس أو مُعَارِضًا لها. وذلك بجانب العمل اليومي البسيط الذي نقل الوزارات من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور، حتى لو أنكر الأمرَ بعضُ الجهات الناكفة داخل الوزارات.

ومن أهم هذه الانجازات الاستراتيجية ما يلي:

١- عَرَفَتْ وعَرَّفَتِ الرأيَ العامَّ على الأوضاع الإدارية الخطأ داخل الوزارات، وآليّات الترقيات والتعيينات، والبعد عن الخبرات والشهادات والكفاءات، والاعتماد على الفصائلية في التعيينات، الأمرُ الذي أثقل كاهلَ الميزانية العامة ورَهِلَ – استرخى – الجسمُ الحكوميّ الوظيفيّ.

٢- كَشَفَتْ وعَرَّتْ سوءات الدعم الماديّ من قبل المُجْتَمَع الدوليّ، وأثبتتْ أنه كان بثمن سياسيّ باهظ وعلى حساب الكرامة والولاء والتبعية والمواقف والثوابت الوطنية العامة.

٣- زادت من تعرية العلاقة الأمنيّة والاقتصاديّة مع الكيان الإسرائيليّ، ومن سوء الاتفاقيات

المُوَقَّعَة، وعلاقةِ بعض الأشخاص الشخصيّة مع الاحتلال.

٤- ضَرَبَتْ نموذجًا جديدًا في المنطقة لوصول الإسلاميّين والحركة الإسلاميّة للحكم، وإثبات القدرة على الإدارة والمشاركة في الحياة العامة في أعلى درجاتها بشكل يَخْدِمُ المُوَاطِنَ ولا يَخْدِش الثوابتَ.

٥- خَلَقَتْ معادلة جديدةً في التعامل مع الاحتلال، وأوقفت الابتزاز فيه والارتهان له مقابلَ لقمة العيش وامتيازات سطحيّة هنا وهناك، وأثْبَتَتْ أنه بالإمكان القول: لا للعدو والصمود على ذلك.

٦- أوقفتْ حالة الفساد وإهدار المال العامّ داخلَ المؤسسة الحكوميّة ، من خلال قرارات عديدة في هذا الشأن، وخاصة تقليص الامتيازات الذاتية للمسؤولين .

٧- كانت قدوةً حسنة من خلال رئيس وزرائها ووزرائها الذين يعيشون في بيوتهم داخلَ أحيائهم ومُخَيَّماتِهم، ويُصلّون مع الناس في مساجدهم، ويخطبون بهم؛ فلأول مرة يلمس المواطن رئيسَ وزراء يعيش ببساطة بيته، حتى الإجراءات الأمنية البسيطة التي فرضتْها سوءُ النوايا والمخططاتُ القذِرَة لم تُعِقْ سهولة الاتصالَ والوصولَ والمعايشة مع رئيس وأعضاء الحكومة. وهذا لم يكن في الحكومات التسع الماضية.

وهكذا تعيش الحكومة العاشرة وقد سَجَّلَ التأريخُ صفحاتِها وهي تُصَارِعُ المؤامرةَ والإسقاطَ والإفشالَ بكلّ مسؤوليّةٍ وإصرارٍ وصبرٍ وحكمةٍ تارةً، وحزم تارةً أخرى، لتُصْبِح لنا فلسفة حكمٍ بثوبٍ جديدٍ، وباستراتيجياتٍ جديدة – سياسات جديدة – كلها تُصَبُّ في بعد النظر للشعب الفلسطيني، ولكنها تحتاج إلى وطنيين لاستغلالها والبناء عليها ([١٣]).

ولمْ تَكْتَفِ إسرائيلُ وأمريكا بالمعارضة السياسيّةِ والتخطيطيّة والتكتيكيّة، وإنما حَرَّضت أمريكا إسرائيلَ على تكثيف الهجوم العسكريّ على قِطاع غزة، لإزعاج حماس؛ حتى تتخلى عن الحكم لصالح «فتح» التي تُحِبّها هي – إسرائيل – وتحبها أمريكا وجميعُ الدول العربيّة الدائرة في فلكها، وجميعُ دول أوربّا؛ لكونها مُعَبَّدَة وعميلة لأمريكا وإسرائيل، ومُتَطَوِّعَةٌ لتحقيق مصالحهما. واحتلت إسرائيلُ عددًا من مُدُن غَزَّة عدّة مرّات، وكانت مدينتا «رفح» و«خان يونس» من أكثر المناطق تعرُّضًا للتوغلات الإسرائيلية المستمرة، كما تعرّضتْ لها مدينة «بيت حَانون» حيث أعادت قواتُ الاحتلال احتلالها عدّةَ مرات خلالَ الانتفاضة الثانية الحالية، وكان آخرها يومَ الأربعاء: ١/١١/ ٢٠٠٦م (٨/شوال ١٤٢٧هـ).([١٤])

([١٣]) رسالة الإخوان، لندن، العدد: ٤٨٦، نقلا عن فلسطين في انتظار...ص:٩٠.
([١٤]) فلسطين في انتظار...ص:٩٠

نساء بيت حانون.. أقوى الرجال!!

وأمام مرأى العالم الصامت تجاهَ جرح غزة النازف وأمام همّة عربية غارقة في سبات عميق شَاهَدَ الملايينُ صورًا ولقطات ظنوا أنها من صنع فنان أو محض خيال، فقد ظهرت فيها نساءٌ فلسطينياتٌ وهن يَتَحَدَّيْن دباباتِ الموت وشظايا البتر فسقطت منهنّ الجريحةُ والشهيدةُ.

لم يَستَسلِمْنَ بل وَاصَلْنَ مسيرتَهن والقذائفُ المُسيِّلة للدموع تنهال على رؤوسهن إلى أن سَمِعَ العالمُ بأسره خبرًا عاجلاً مُفادُه أن «مجموعة من النسوة الفلسطينيات في «بيت حانون» بقطاع غزة نجحن في فكّ الحصار عن المقاومين المحاصرين في مسجد النصر الذي طوَّقَتْه الدباباتُ الإسرائيلية بعدما لجأ إليه عشراتُ المقاومين.

مريم علوان التي أصيبت بشظايا في صدرها ويدها قالت وهي تجلس راقدةً على سرير المستشفى في «بيت حانون»، بنبرة افتخار: «حق لنساء فلسطين أن يفتخرن بما فعلن ... لقد قمنا بما عَجَزَ عن قيامه أقوى الرجال.. كم نشعر بالفخر لما أنجزناه.. وتصف مريم ما قامت به بالمُغَامَرَة أو بأحداث فيلم سينمائي قائلة: خرجنا منذ ساعات الصباح الباكر ووقفنا مُتَحَدِّيَاتٍ الدباباتِ، متحدياتٍ الموتَ في سبيل إنقاذ مقاومينا وشبابنا، فشعرتُ أننا كنا أقوى من هذه الدبابات، بينما كانت حميلة الشنطي عضوُ المجلس التشريعي عن حركة حماس التي قادت المسيرةَ النسائية تلهب مَشَاعِرَ المُشَاركات وهي تردد الشعاراتِ الحماسيَّة فزادتنا صمودًا».

وكشفت مريم عن أن المقاومين خرجوا سالمين متنكرين بزي نسائي قائلة: «كل واحدة منا ارتدت فوق حجابها وغطاء رأسها حجابًا آخر وغطاءً آخر. ولما وصلنا محيطَ المسجد مَرَرْنَا الملابسَ للمقاومين ليرتدوها وخرجوا وساروا وسطنا في الطريق معنا ونحن نحيطهم من كل جانب حتى وصلوا إلى برّ الأمان والسلامة».

وعن الصمت العربي المطبق تجاهَ العدوان على «بيت حانون» قالت مريم مستنكرةً: «في عالم صَمَتَ فيه الرجالُ ودُفِنَتْ فيه العروبةُ وأصاب حكامَها الخرسُ، كيف لا نذهب للموت والفداء وكيف لا نتقدم الصفوفَ في الجهاد».

زوجُ مريمَ الذي كان يرقد بجوارها بعد إصابته برصاص الاحتلال ابتسم مُعَلِّقًا: «والله أشعر بالفخر الشديد لما قامت به زوجتي... وصدقًا لقد أخجلتنا نساء فلسطين».

وفي أثناء تنفيذ المهمة، استُشْهِدَتْ امرأتان هما رجاء أبو عودة (٤٠ عامًا)، وأنغام سالم (٤٠ عامًا)، وجُرِحَتْ ١١ امرأة وفتاةٌ بينهن اثنتان في حالة حرجة للغاية.

قادة إسرائيل: نساء «بيت حانون» صنعن أسطورة

اعتبر عددٌ من القادة والمعلقين العسكريين الإسرائيليين مشاركة النساء الفلسطينيات في فك الحصار عن المقاومين في «بيت حانون» شمالَ قِطاع غزة تُمَثِّلُ أسطورة تاريخية.. واتفقوا في الوقت نفسه على أن إسرائيلَ ستَفْشَلُ في تحقيق أي من الأهداف التي وضعتها للعملية المتواصلة على «بيت حانون».

وقال «يوسي بيلين» رئيس حركة «ميريتس» الذي شغل في الماضي منصبَ وزير القضاء: «إن ما قامت به هؤلاء النسوة هو أسطورة، وموقف بطوليّ سيُضْفِي الصدقية والاحترامَ على النضال الوطني الفلسطيني».

أما الجنرال «زئيف شيف» الخبيرُ العسكريُ والإستراتيجيُ الشهيرُ بصحيفة «هاآرتس»، فقد قال: «إن نساءَ «بيت حانون» صنعن تاريخًا بعد أن تزودن بإيمان كبير وعقيدة صلبة جعلتهن يُقْدِمْن على هذه «المخاطرة» التي أسفرت عن مقتل ٣ وجرح عدد كبير منهن من أجل العمل على فك الحصار عن المقاومين الفلسطينيين الذين كانوا مُحَاصِرين في المسجد».([١٥])

ولم تكتفِ أمريكا وإسرائيلُ بذلك؛ بل حَرَّشَتْ بين الإخوان، ودَعَّمت حرسَ الأمن الفتحاويّ من خلال قيادة «دحلان» ورجاله العلمانيين المتنكرين للإسلام علنًا. وبعد صراع دام شهورًا توسّط خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز، فدعا الفريقين إلى مكة المكرمة، وعقد معهم اجتماعًا استمرَّ أربعة أيّام بين الثلاثاء والجمعة: ١٤٢٨/١/١٧هـ حتى ١٤٢٨/١/٢٠هـ (٢٠٠٧/٢/٦م حتى ٢٠٠٧/٢/٩م) ووَقَّعَا على ميثاق اتفاق مكة التاريخي؛ ولكن «فتح» أولاً، وأمريكا وإسرائيل ثانيًا لم ترض هذا الاتفاقَ، فحرّضت الأخيرتان الأولى على الصدام المُسَلَّح مع حماس، مما أدَّىٰ إلى سيطرة حماس على غزّة يوم الخميس ١٤/يونيو ٢٠٠٧م (٢٧/جمادى الأولى ١٤٢٨هـ) فوقفت أمريكا وإسرائيلُ والمجتمعُ الدوليُّ بما فيه معظم الدول العربية التابعة لأمريكا، بشكل ماديّ ومعنويّ علنيّ، فأقال محمود عباس رئيسُ السلطة الفلسطينية الحكومة الحماسيَّة الشرعيَّة، وفرض حكومة غيرَ شرعيّة بقيادة المدعو «سلام فياض» العلماني هو الآخر، فرضيتها كل من إسرائيل وأمريكا ومعظمُ الدول العربيّة رضًا لايُوْصَف، وفرَضَ المجتمعُ الدوليُّ على حماس في غزة عزلة من كل الوجوه، وعَاقَبَتْها إسرائيلُ باستمرار بقطع الماء والكهرباء والغاز ووسائل الحياة عن قطاع غزة، حتى يثورَ عليها – حماس – الشعبُ؛ ولكن الشعبَ لايزال صامدًا لحدّ كتابة هذه السطور يومَ الثلاثاء ١١/سبتمبر ٢٠٠٧م

([١٥]) رسالة الإخوان، لندن، العدد: ٤٨٤، نقلا عن فلسطين في انتظار...ص: ٩٣.

(٢٨/شعبان ١٤٢٨هـ).([١٦])

رئاسة وحكومة فلسطينية:

وخديعة نعيش تفاصيلها ومخازيَها، رئاسة بأجهزتها وحكومة برجالها... نتيجتها صراعٌ داخليّ بينهما، قيادةٌ برأسين، وحكومة مُنْتَخَبَة فُرضَت عليها وزارات بَهَيَاكِلَ فارغة من أي مضمون أو قرار، سُلِبَت كلَ الإمكانات للإصلاح والتغيير... وقالوا: وصولُ حكومة رئيسُها وأغلبُ أعضائها من حركة حماس إلى سُدَّة الحكم في فلسطين هو السبب في معاقبة الشعب الفلسطيني وتجويعه وإذلاله، وقطع المعونات عن سلطته ووقف الاتصالات معها، قراراتٌ تَمَّ تنسيقُها بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربي؟!

والحقيقةُ أن الكيان الصهيوني نَجَحَ بتخطيط إستراتيجيّ بعيد المدى في دفع الفلسطينيين إلى هاوية الفوضى والاقتتال الداخليّ، عبرَ إضعاف «طرفي النزاع» الفلسطيني، ومُمَارَسَة الحصار الاقتصاديّ والضغط السياسيّ على الشعب الفلسطيني خصوصًا في قطاع غزة.

فما يَحْدُث من فوضى واقتتال داخليّ لا يُمكن بأي حال من الأحوال أن يكون بعيدًا عن الأيدي الصهيونيّة بل هو نتيجة لتخطيط يهوديّ صهيونيّ بعيد المدى، وهو صاحب المصلحة الأولى في رؤية الدم الفلسطيني يُسْفَك بسلاح الإخوة والأشقاء في الفصائل الفلسطينية، هذا ما أكَدَتَه الكاتبة والمحللة السياسيّة المختصة بالشؤون الفلسطينية، «أورلي نوي» في مقال تحت عنوان «مسيرة تخريب السلطة الفلسطينية» نشرته صحيفة «يديعوت أحرونوت» الصادرة باللغة العِبْرِيّة، لخَّصَتْ فيه سياسة الاحتلال في التعامل مع حماس وفتح بالآتي: «جذور هذا الصراع الخطير تعود إلى السياسة (الإسرائيلية) في إضعافِ الطرفين: فتح وحماس، بشكل متساو، بحيث لايستطيع أيّ منهما السيطرةَ على الأراضي الفلسطينية بشكل فعال، وسياسة: «لايوجد شريك فلسطيني» لم تُبْتَكَرْ من أجل «حماس»، وكلما شَعَرَتْ (إسرائيل) بأن حماس تخسر من قاعدتها الجماهيرية، وأن هناك احتمالاً لعودة قوة «أبومازن»، فإنها تقوم بإضعافه بخطوات سياسية أو عسكرية مدروسة، وهكذا باستمرار».

كل ما سبق من خداع نقدمه بإخلاص وحرص على دماء الأخوة في الفصائل الفلسطينية المتناحرة ليعي الجميع حجمَ المؤامرة على فلسطين وأهلها... ونحن على يقين أنّ من كان مشروعُه الحفاظ على أرضه ومقاومة المحتل وإفشال مؤامراته وخداعه ، لايُمكن أن ينجرّ إلى اقتتال داخليّ لا رابحَ فيه إلا

([١٦]) فلسطين في انتظار...ص:٩٤.

العدوّ الصهيونيّ.

فالذي وعد اليهودَ بوطن قوميّ في فلسطين وقرَّر تقسيمَ أرضها واعترفَ بالكيان الصهيونيّ على ترابها، وغضَّ النظر عمن تشرّد من أهلها، ولم يفرض على المحتل تنفيذ عَشَرَات القرارات الدوليّة، وتَجَاوَزَ عن كل ممارسات المحتلّ واعتداءاته ورعى الاتفاقات الزائفة، وفرَضَ الحصارَ الشاملَ على الحكومة المنتخبة، ولم يستنكر سجنَ وزرائها، واعتقال مُمَثّليها، هو كذلك الآن من يراقب هذا الاقتتال بين إخوة الدين والوطن والسلاح، بل ويدفع له بتقوية جانب على آخر... مسيرة مستمرة من الخداع ماثلة أمامنا بكل صورها التي يندى لها الجبينُ!!

فللأطراف المتنازعة نقول: لنقف صفًّا أمام هذا الخداع لنعيَ المؤامراتِ التي تدور حولَ فلسطين وشعبها، وأن نعرف ما وراء تلك الأحداث، وكيف سُخِّر الإعلامُ الغربيّ وغيره لتبرير الحصار وسياسة القتل البطيء للمسلمين في الأرض التي باركها الله للعالمين، وعَجِّلوا الأمورَ لدفعكم جميعًا لاقتتال وسفك الدماء المحرمة. ([١٧])

تحية لجنرالات الحجارة

عند ما تطول المصائبُ، وتستمرّ الهَوَانَاتُ، وتتواصل الأحزانُ؛ تَخِفّ وطأتُها على نفس البشر أفرادًا كان أو مجموعة؛ لأنّ الطبيعة البشريّة تَتَعَوَّدُها وتستسيغها، وتعود تعيشها كأنها من حاجاتها أو من لوازم حياتها التي لايمكنها أن تتخلى عنها.

يبدو بل يتأكد، أننا نحن المسلمين – عربًا وعجمًا – نعيش ذلك الواقعَ المريرَ المُخْزي الشانن فيما يتعلق بالقضية الفلسطينيّة بصفة خاصة والقضايا الإسلامية بصورها المتعددة وظروفها المختلفة عَبْرَ العالم، بصفة عامة..

عُدْنَا نَتَنَفَّسُ في الهَوَان يلاحقُنا في كل مكان كأنه الهواءُ والماءُ اللذان لا معدى لنا عنهما؛ حيثما كنا و على أي حال عِشنا، وعُدْنا وكأن الحرمانَ قدرُنا المقسوم وحظّنا المقدَّر، والانتصارُ حظُّ غيرنا من الأمم..

عُدْنا وكأننا لسنا أبناءَ الأمة التي شَادَتِ العُلاَ. ورسَّخَتِ المجد، وأصّلت العزّ والكرامة، وغرست النخوة والإباء في كل شبر من أشبار أرض الله..

([١٧]) رسالة الإخوان، لندن، العدد: ٥٠٥، مقال الأستاذ عبد العزيز الغريب، نقلا عن فلسطين في انتظار...ص:٩٦.

عُدنا وكأننا لانعرف بتاتًا صِنَاعَة الموت والشجاعة، والبطولة والفداء، والتضحية والإقدام؛ وإنما نُحسن صِنَاعَة الكلام والقرار، والشجب القوليّ، والاستنكار اللساني، الذي نستخدمه هو الآخر للاستهلاك المحليّ..

عُدْنَا وكأننا نسينا الأقصى الجريحَ وفلسطين السليبة، والأراضي العربيّة المحتلّة، والذاتَ العربيّة المُحَطَّمَة، والكرامة العربية المَدُوْسَة، والأعراضَ الإسلامية المهتوكة، والروحَ العربيّة المقتولة، والأجسادَ العربيّة الإسلاميّة المُعَذَّبة المُهَانَة، في تلك البقاع ذات القَدَاسات وأرْض النُبُوَّات.

كأننا نسينا تمامًا ألمَ الصَفْعَات واللَطمَات بل اللَكَمَات والرَكَلاَت التي أصابنا بها أخَسُّ الأمم وأذلُّ البشر أحفادُ قَتَلة الأنبياء: اليهودُ؛ لأننا عُدْنَا نعيش غيابَ الوعي القوميّ والحضاريّ والإسلاميّ تمامًا.. ولذلك صِرْنا نُقَدِّم لها خَدَّنا الأيسرَ بعدما قَدَّمْنا لها خدّنا الأيمن لِتُتْحِفَه بنفس الصَفْعَات واللَطمَات بل بأشدَّ منها إهانة و «إيلامًا».

نسينا ما يعانيه الشعبُ الفلسطينيُّ المُنَاضِل في تلك الأراضي المغصوبة منذ أربعين سنة على أيدي الشُذَّاذ اليهود الصَّهَاينَة الجائرين، ومن المآسي والاضطهاد، والتعذيب والتنكيل، والظلم والتعسف، والعدوان والتشريد، الذي لم يَعْرِف التاريخُ مثيلاً له في سجلاّته..

إنَّ الانتفاضات هي التي تذكر بحياة القضية

غير أن الانتفاضاتِ التي يقوم بها الشعبُ الفلسطينيّ المُنَاضِل من حين لآخر – والتي هي قائمة باتّصال منذ أن قام الاحتلال الجائر الغشوم فلم يمرَّ منذئذ يومٌ إلا كانت فيه عمليةٌ جريئةٌ قُتِل فيها مُنَاضِلٌ، وشُرِّد فيها مُكَافِح، وهُدِم فيها منزلُ مُوَاطِنٍ، أو أُغلِقت فيها مدرسة أو معهدٌ، أو قُتِل فيها شابٌّ غَيُوْرٌ – هي التي تُذكّرنا بالدماء القانية الزكيّة بأن القضية لاتزال ترزح تحت نير الصَّهَاينَة الجائرين..

منها تلك الانتفاضة البطولية الشعبيّة التي قامت في الشهور الأخيرة والتي لا تزال ماضية في طريقها، وستظل ماضية في طريقها، وستظل ماضية بإذن الله، حتى النصر الذي يبنيه بإذن الله الشباب العربي الجسور..

في ظروف غياب الوعي الحضاريّ الإيمانيّ الأصيل الذي تعيشه الأمة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربها، أنْعَشَتْ تلك الانتفاضة السعيدةُ النابعة من الشعور بتحطيم الذات العربيّة وجرح الكرامة الإسلامية العربيّة.. أنْعَشت الأملَ في قلوبنا، وأثْلَجَتْ صدورنَا بعد يأس طويل وجمود أطول منه ، وكأنها كانت كصيحةِ حقٍ مُدوِّية في الصحراء الساكنة..

واجبنا نحو أطفال وشباب الحجارة

فيجب أن يُحَيَّىٰ أبطالُها: أطفالُ الحجارة أو جنرالات الحجارة الذين تقدّموا – حسب تعبير إحدى المجلات السيّارة – حين تأخّرَ جنرالات الجيوش العربية ، والذين لايحدوهم إلا الإيمانُ بالله ولايدفعهم إلا نشوةُ أخذ الثأر من كل الأعداء المُبَاشِرين وغير المُبَاشِرين، الخارجيين والداخليين.

يجب أن نساعدهم بالمال والرجال، والأقوال والأفعال، حتى يعودوا أكثرَ قوة ونشاطاً وفاعلية، ويستمرّوا في الكفاح والنضال باسم العروبة والإسلام والوطن معًا، لا باسم العروبة والوطن فقط.. لأن العدوَّ – كما قلتُ مرارًا، وسأقول مرارًا أخرى – يحاربنا باسم الدين أولاً وباسم الوطن والأرض الموعودة ثانيًا أو ثالثًا. إن نقاط الضعف في الموقف العربيّ الإسلاميّ في «فلسطين» أنه انطلق عن الدبلوماسية والوطنيّة فقط، ونسي أو تناسى الإسلاميّة، على حين إن الدين هو الذي كان وسيكون الدافعَ الحقيقيَّ في هذه القضية ، والعدوُّ لايحاربنا إلا لأننا أبناءُ الإسلام، وأبناءُ صلاح الدين، وأمة محمد ﷺ .

الفارق الأساسي بيننا وبين الكيان الصهيوني

الفارق الأساسي والعميق بيننا وبين الكيان الإسرائيلي أنه يرى الحربَ بيننا وبينه حربًا دينية يُغَلّفها بالدبلوماسية والوطنية، وأننا نراها حربًا سياسيّة نخوضها فقط لاستعادة أراض احتلّها ، ولا شيء سوى ذلك.

وبعد، فلا بدّ أن نجعل هذه الانتفاضة المباركة التي قام بها الشبابُ اليافعُ وبراعمُ الإيمان وأطفال الإسلام، أكثرَ ذكاءً ونماءً وثورةً والتهابًا؛ حتى تأتي على كل أخضر ويابس من الكيان الإسرائيليّ الفاجر.. علينا أن نرعاها ونتعهّدها بكل ما تحتاج إليه من المساعدات الماديّة والمعنويّة، وأن نحترز عن كل ما من شأنه أن يُثبّطها وأن يَحتَوِيَها، الأمرُ الذي يريده العدوُّ ويعمل على تحقيقه بحيلة أو بأخرى..

علينا أن نتجنّب جميعَ التصرّفات «الخرقاء» التي من شأنها أن تُجهِّز هذه الانتفاضة المباركة التي أيقظت الأملَ، وحرّكت العملَ، وأنعشت الحماسَ، وأذكت الغيرةَ بعد مدة، وحَذار أن نظن أنها كانت «لتحريك القضية» فحسبُ، وقد تمّ هذا التحريكُ، فلتَنْتَهِ.. حذار أن نقبل المساومة واللفَّ والدَوَرَانَ وسياسة كسب الوقت وتفويت الفرصة، التي بدأ يستخدمها العدوُّ وحليفهُ الأكبرُ والأصغرُ وجانباه الأيمن والأيسر..

أخوف ما نخافه

إن أخوفَ ما نخافه هو أن يرضى العربُ والمسلمونُ كالمرّات السابقة بالطروحات الأمريكيّة التي لا تحمل في ثناياها إلا ما يكون في صالح الكيان الصهيوني، وينعكس آثارُه السلبيَّة على الانتفاضة ومُكتَسَبَاتها وعلى مسار القضية ومُعْطَيَات «الحجارة». فالواجبُ رفضُ جميع الوعود المعسولة الوهميّة

من الكيان الإسرائيليّ أو أمريكا وغيرها.

لِيَهْنَأ لأبطال الانتفاضة هذه الغضبُة العارمةُ القاصمةُ لظهر العدوّ بإذن الله، الذين صَمَدُوا في وجه الرصاص، والموادّ الكيميائية الحارقة وقنابل الغاز، بالحجارة وزجاجات النفط، من يدري إذا كانت حجارةٌ من سِجِّيْل* تجعل العدوَّ كعصفٍ مأكول..

إن التاريخ يشهدُ أن الشعب المظلوم عند ما نَهَضَ في وجه الظالم مهما كان قويًّا جبّارًا، يملك الحولَ والطولَ، والجنودَ والبنودَ.. زَلْزَلَ عَرْشَه، ودَكَّ قصرَه*، وألان قناتَه، وأسقط جندَه، ونَكَّسَ بندَه..

والشعبُ المظلوم لابد أن يَنْهَضَ في وجه الظالم عاجلاً أو آجلاً عند ما تفيض كأسُ صبره، ويُعال تصبّرًا، ويَتَخَطّى الظلمُ الحدودَ، إذا كان ذلك الشعب لم يفقد «ألم» الظلم ولم يَنْسَ «هوانَ» اللطمة؛ لأن ذلك هو الذي يدفعه لأخذ الثأر فإذا ما فقده فقدَ الدافعَ..

إن الضعيف عند ما يقوم في وجه القويّ مدفوعًا بالغضبة الصادقة يأخذ منه حقَّه و لولم يملك إلا الطُّوْبَ والحجارةَ والعِصيَّ والهرَاوات الصغيرة التي يُجَابه بها البنادقَ والنارَ والرصاصَ والقنابلَ والقذائفَ؛ وذلك أن طوبَ المظلوم وحجارتَه ومعه قوةُ الحق، أقوى وأفتَكُ من رصاص الظالم وقنابله وقذائفه «وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بإذْن الله، وَالله مَعَ الصَّابِرِيْن (البقرة/٢٤٩). ([١٨]).

الرجاء في الانتفاضة المباركة كبير

في الثامن من ديسمبر ١٩٨٩م مضتْ سنتان على تفجّر الانتفاضة المباركة في فلسطين المُحْتَلّة؛ فقد بدأت في ١٩٨٧/١٢/٧م بأيدي الشباب الذي تَلَقّى الإسلامَ فهمًا والتزامًا، ونَهلَ من القرآن، وتَشبَّع بعزّة الإسلام، وتَشَرَّب روحَ العظمة والكبرياء والشموخ، التي تُضْفِيها الرسالةُ الإسلاميّة المحمديّة – على صاحبها ألف ألف سلام وتحية – على رجال تُخالطُ بشاشةُ الإسلام قلوبَهم.. الشابِ الذي عاش أكثرَ من أربعين عامًا ينتظر بفارغ الصبر انتصارَ الجيوش التي أحدثت الانقلابات باسم «فلسطين» و تحريرها، ويُرَاهِن على المُنَظَّمَات التي حَمَلت السلاحَ ورفعتْ شعارات جوفاءَ ولافتات برّاقة وعقائدَ شتى وأفكارًا مُشوَّهة، دون أن ترفع راية الجهاد والتوحيد والعقيدة والصدق مع النفس ومع الله.. الشبابِ الذي أدرك تفاهة الأطروحات وخداع الإيديولوجيّات الدخيلة.. فقرَّرَ أنه لم يكن ولن يكون الطريقُ إلى العِزّ والكرامة وتحرير فلسطين دون تنازل عن شبر من أشبارها إلا الجهادَ الصادقَ والصمودَ الدؤوبَ

([١٨]) الداعي، العدد: ١٣، السنة: ١١، التاريخ: ٢٠/رجب ١٤٠٨هـ ، الموافق ١٠/مارس ١٩٨٨م .

والتضحية بآخر قطرة من الدم القاني الفائر في العرق الثائر في جسم الشباب العربي الإسلامي المحمدي.

وقد خاب ظنُّ اليهود وأبطال القوميّة والعروبة والاشتراكية – دون أبطال الإسلام – الذين كانوا قد رَاهَنُوا على أنّ الانتفاضة ستكون زوبعة في فنجان، لا تستمرّ إلا أسبوعًا أو أسبوعين، ثم تنطفئ للأبد ككثير من الثورات والتفجُّرات تشتعل ثم تخمد.. ولم يدركوا – وما كان لهم ليدركوا – أن الانتفاضة ثورةٌ جهاديّة مستمرّة هدفُهَا تحريرُ كل أرض الإسراء والمعراج، وطردُ الاحتلال البغيض الخبيث من كل شبر منها (أنظر بيان حماس الأول ١٩٨٧/١٢/١٥م) وليست انتفاضة مُؤقّتة فارت من أجل الخلاص من وضع جرَح موقّت أو سبب طارئ. (الانتفاضة المباركة وقائع وأبعاد للأستاذ غسّان حمدان ص ٨)

إن الانتفاضة الحالية عبارةٌ عن عمليّة تراكميّة، شاركت فيها عواملُ كثيرة، على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي في جميع المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية. وكان الاحتلال بكل صَلَفِه وجبروته عاملاً أساسيًا ضمنَ هذه العوامل؛ حيث إن الاحتلال شارك دون أن يدري في هذه الانتفاضة، وذلك من خلال سياساته العدوانيّة الاستيطانية في الأراضي المُحتَلّة، وقد كان «موشى دايان» يُحذّر من مثل هذه الانتفاضة، فيقول: «إذا تحوّل الفلسطينيون إلى مقاومة وطنية شعبية فإننا سنُعَانِي الكثيرَ وسنَتْعَب كثيرًا» اليوم السابع، ص ١٢٣، ١٩٨٨/٦/١٣م – نقلاً عن الانتفاضة المباركة، ص١٤).

والحقيقةُ أن الانتفاضة هذه قد حقّقت خلال سنتين فحسب من المكاسب والإنجازات ما يفوق كَمًّا وكيفًا جميعَ أعمال المُقاوَمَة خلالَ أربعين عامًا.. وقد ساهمت الصحفُ الإسلاميّة وغيرُ الإسلامية في التعبير عن هذه الحقيقة، كلٌّ بأساليبها التي أرْضَتْها.

ولكني أرى أنّ أكبرَ المكاسب التي حَقّقتْها الانتفاضةُ أنها ولأول مرة في تاريخ الصراع مع العدوّ الماكر اللعين قد بَلْوَرَتْ قضية الجهاد، وأبرزتْ أن الصراعَ عقيديٌّ جهاديّ إسلاميّ، وليس فقط صراعَ التنازع للبقاء وصراعَ التراب والطين والأرض والحدود والثغور، كما دَرَجَ على التركيز على هذا الجانب نجومُ العروبة وأبطالُ الاشتراكية وأنصارُ القومية الذين حملوا لواءَ الصراع مع إسرائيل.. والذين ارتكبوا خياناتٍ مستمرةً وخداعات متواصلة، وحوّلوا الإجماعَ العربي القويَّ المتماسكَ على رفض الاعتراف بالعدو رفضًا شاملاً منذ عام ١٩٤٨م حتى حزيران ١٩٦٧م باستثناء موقف الرئيس «التونسي «بورقيبة» الداعي لتنفيذ قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧م.

حوّلوه تراجعًا مستمرًا وتنازلاً مُهينًا مُتَتَابعًا وخضوعًا ذليلاً للمؤامرات العالمية اليهودية الصليبية

الشيوعية الغربية.. وعلى ذلك حَوَّلوه من موقف «المقاطعة الشاملة» إلى «تطبيع العلاقات» مع العدو والمغازلة معه بصورة فاضحة وَقِحة تَدل على مدى الجبن والخنوع والاستسلام وفقدان الغيرة والشعور بالخطورة وفَدَاحة الألم!.

ولم يكن الرئيس المصري «أنور السادات» أول خائن، ولم تكن زيارته الكيانَ اليهوديَّ خيانة أولى أو أخيرة، ولم تكن اتفاقية «كامب ديفيد» غدرًا أوَّلَ، أو طعنة غائرة أخيرة في قلب الأمة الفلسطينية الإسلامية والأمة العربية الإسلامية؛ ولكنها قد سبَقَتْها خيانات ولحقتها خيانات لا يعلم عددَها إلا الله.

قلت أكثرَ من مرة أن إضفاءَ لون العلمانية والاشتراكية على ما يُسَمّى بقضية «الشرق الأوسط»، وجعل «قضية فلسطين» وتحرير أراضيها، قضية تحرير التراب والأرض، كان أول مؤامرة في هذه السبيل.. فبينما ظلت إسرائيلُ تخوض مع العرب والمسلمين حربَ العقيدة، ظلّ العرب والقيادات الفلسطينية تخوضها حربًا اشتراكية علمانيّة لادينية، ظلوا ينادون بكل شيء إلا بالإسلام المسكين والعقيدة المسكينة. لو ظلت المعركة مع العدو معركة الجهاد، معركة الإسلام، معركة العقيدة المُلهِبَة للقلوب، المُثِيرة للغضبة العارمة، المُحَرِّكة لشعلة الغيرة المُحْرِقة، والنخوة الثائرة.. لما حصلت التنازلاتُ والتراجعاتُ والانكسارات والانكسارات الخيانية، ولما كان هناك دَوْرٌ للعلمانيين والاشتراكيين والمُلحِدين والقوميين، ولما كانت هناك مُرَاهَنَات على مؤتمرات جنيف، ومبادرات «واشنطن»، ومواعيد «موسكو»، وخطط السلام، وهجوم السلام، ومساعي المساومة والصلح، واتفاقيات «الأمم المتحدة»، وجولات وزراء خارجية الملة الكافرة التي لن ترضى عنا حتى نَتَّبِعَها، وهل تنقم منا إلا أن آمنا بالله واتبعنا رسوله.

ولما ثارت الانتفاضة التي أزعجتِ الكيانَ اليهودي، وألحقت به خسائر اقتصادية ومادية و معنوية، ولم تستطع إخمادها بحيلة أو بأخرى، واعترفت قيادتُه السياسيةُ العسكريةُ بعجزها عن القضاء عليها رغمَ جميع أساليب القمع والوحشية والبربرية والنازية والاعتداءات التي تبتكرها كل يوم من قتل بالرصاص، وتعذيب جسدي وحشي وزج في السجون والمعتقلات ومصادرة الحقوق المدنية والحريات والحصار الاقتصادي.. أقول عندما لم يتمكن العدوّ من تركيع الانتفاضة الباسلة وإسقاطها في الطريق، بدأ هو وحلفاؤه يُلوِّحون بمبادرات السلام مرة أخرى كمرات سابقة لامتصاصهم من حركة الانتفاضة قوَّتها ونشاطَها وحِدَّتَها، ولإخمادِ ثورتها وتهدئةِ غضب الشعب الفلسطيني الذي يعيش التشريدَ والتجويعَ والتركيعَ والتعذيبَ الجسديَّ والنفسيَّ منذ أكثر من أربعين عامًا، والعدوُّ ماضٍ في وقاحة وإصرار في انتهاك حرمة المسجد الأقصى وأراضي الإسراء والمعراج وأولى القبلتين..

وحتى هذه التنازلات المتصلة لم تُجْدِ شيئًا العربَ والفلسطينيين، ولازال العدوُّ يرفض أيَّ نوع من التسوية يأتي في صالح الفلسطينيين وحقوقهم المشروعة غير القابلة للصرف، ذلك العدوّ الذي كان يطمح لدى مقاطعة العرب الشاملة له إلى اعترافهم بوجوده فقط!.

والرجاءُ في الانتفاضة المباركة كبيرٌ، ويقيني عميقٌ بأن الشباب الفلسطيني الغيور الذي تَذوَّق الإسلامَ واستوعبه، سوف يُفوِّت الفرصة على الأعداء في داخل الصف وخارجه، وسوف لا يقع في الشِّبَاك التي تُمَدّ من أجل تصيّده، ولا ينهار أمام المُغريات ولا ينخدع بالمؤامرات.([١٩])

* * *

التفاف العرب حول عروبة القدس يمكن أن يكون أكبر عامل في تضامن العرب

إن التفاف العرب حول قضية عروبة القدس وأنْ تَظلّ القدسُ عربية وجزءًا من الوطن العربي الواسع وفي عهدة الإسلام والمسلمين، كان أكبرَ و أقوى عامل في تضامن العرب وإشعارهم – بعد الرسالة الإسلامية المحمدية الخاتمة – بوجود لحمة واقعيّة فيما بينهم، وظلَّ هذا العاملُ يلعب دورًا أساسيًّا في التأريخ العربي المعاصر في منعهم عن الانكفاء على المشاكل العربيّة الداخليّة التي دفعتْ طوَالَ السنين الماضية للمجابهة المتحدة للعدو المشترك الذي ظلّ – وسيظل ولو وَقَّعَ مع العرب مئاتِ الآلاف من اتفاقيّات الصلح والسلام – يتربّص بهم جميعًا.

والمُعْطيَات السياسيَّة ومُدَاوَلاتُ المسلسل السلامي وتصريحاتُ زعماء العدو وقادة الغرب ونخب البيت الأبيض في جانب، وبياناتُ قادة العرب و«ياسر عرفات» بالذات – التي تأتي مُضَعْضَعة فارغة كالفُقَّاعَات* – في جانب آخر، يُتِيح لأي مُتَابع عاديّ للتطوّرات الساخنة للأوضاع العربيّة فرصة قراءةٍ صافيةٍ وواضحةٍ ليَخْرُجَ منها بنتيجةِ أنَّ العربَ بدأوا يتَهَاوَنُون في شأن القدس وأن اليهود تُوْشِك أن تُهوِّدها كليًّا وتُعْلِنَها في واقع العمل أيضًا على مرأى ومسمع من العالم كله عاصمة أبديّة لإسرائيل.

فقد أكَّدَ رئيسُ الوزراء الصهيونيّ «شيمون بيريز» في اجتماع عقدَه مع «حاخامات» يهود من الأمريكان في أوائل فبراير ١٩٩٦م «أن القدس لن تكون ذات يوم على جدول أعمال المفاوضات بين العرب وإسرائيل مستقبلاً. ومن الغباء تقسيمُ المدينة إلى شطرين مثلما حَدَثَ لبرلين، وقد طالب «بيريز» في الاجتماع المذكور بعقد مؤتمر صهيونيّ في العام القادم ١٩٩٧م بمناسبة مرور مائة عام على عقد المؤتمر الأول، الذي كانت اليهودُ قد عقدَتْه في مدينة «بازال» السويسرية عام ١٨٩٧م، والذي كانت قد حدَّدت فيه هدفها بالوصول إلى تحقيق حلم «إسرائيل الكبرى» وذلك لإعلان القدس عاصمة موَحَّدَة أبدية

([١٩]) الداعي ، العدد: ١١، السنة: ١٣، التاريخ: ١٤١٠/٦/١٢هـ الموافق : ١٩٩٠/١/١٠م.

لإسرائيل. وظلّت إسرائيلُ تُنفّذ خطواتها نحوَ تهويد القدس منذ ما بعد المؤتمر الأوّل لليهود المشار إليه، وظلّ المجتمعُ الدوليُّ مُمثلاً في الأمم المتحدة يتواطأ معها ؛ حيث صدر قرارُ تقسيم فلسطين وتدويل القدس في ١٩٤٧/٢/٢٩م وبعد حرب ١٩٤٨م وإعلان قيام إسرائيل على أنقاض فلسطين أصدرت إسرائيل في ١٩٤٩/١٢/١٣م بكون القدس عاصمة لإسرائيل، وبعد حرب ١٩٦٧م أقدمتْ إسرائيلُ على ضمّ القدس الشرقية وأقامت فيها ٨٤ مستوطنة يسكنها ١٧٠ ألف يهودي، وفي ١٩٨٠/٦/٣٠م وافق «الكنيست» الإسرائيلي على قانون يقضي بتوحيد القدس واتخاذها عاصمة مُوَحَّدة لإسرائيل.

المتفاوضون العرب لم يعطوا قضية القدس أي اهتمام

وفي جانب آخر لم يُعْطِ المتفاوضون العربُ والفلسطينيون مع «إسرائيل» والعاقدون اتفاقيّاتِ سلام متتابعة معها، لم يُعْطوا قضية القدس أيَّ اهتمام بدءًا «بالسادات» الذي أبرمَ الاتفاقيّة مع إسرائيل دون أن تُذكَرَ القدس، ومرورًا بالنُخَب العربيّة التي ذهبت في أكتوبر عام ١٩٩١م إلى مؤتمر «مدريد» دون أن يُذْكَرَ اسمُ القدس في خطاب الدعوة، وكلُّ ما صنعته هو أنها اعترفت بوجود «إسرائيل» وهيمنتها على فلسطين، وانتهاءًا باتفاقية «أوسلو» التي وقعها «عرفات» مع «إسرائيل» ولم تتضمن نصوصًا واضحة عن القدس ومصيرها، وإنما احتوتْ على نصّ يشير إلى إجراء محادثات حولَ وضع مدينة القدس خلال عام واحد من توقيع الاتفاقية دون أيّ إفصاح عن طبيعة المحادثات، وقد مَضَىٰ أكثرُ من عام ولم تُعقد المحادثات ولن تُعقد بهذا الشأن، كما صَرَّحَ بذلك «بيريز» في أكثر من مُنَاسَبة. وكان أعلن «عرفات» أنه يتمسك بصيغة «الفاتيكان» كحلّ لقضية القدس، ثم انكشف أن «الفاتيكان» لم تمسَّ السيادةَ الإسرائيلية على القدس وإنما طالبتْ بسيادة دوليّة على الأماكن المُقدَّسة، ولاشكّ أن ذلك إقرارٌ بأسلوب آخر للهيمنة الإسرائيليّة على القدس .

أما اليهودُ فهي ماضية في تنفيذ خُطَطِها دون إعارة اعتبار لأحد، وقد تَخَطّتْ الآنَ كلَّ حاجز بإعلان القدس عاصمة لهم. ومنذ عدة شهور بدأوا يُدنّسون المدينة بإنشاء الحانات ونوادي القمار والمراقص وزيادة رُقْعَة المُسْتَوْطَنَات وزيادة أعداد السكان اليهود، في طريق اتخاذ الإجراءات النهائيّة اللازمة لتهويد القدس وفرض الهيمنة اليهودية عليها.

المستفيد من عملية السلام إنما هو إسرائيل لاغيرَ

وبصرف النظر عن قضية القدس خصوصًا وقضية «فلسطين» عمومًا فإن القارئ لأوضاع ما بعدَ عقدِ السلام مع إسرائيل يَتَأكّد أن المستفيدَ الأولَ والأخيرَ من هذا السلام هو الجانبُ الإسرائيليُّ وحدَه، وأن الجانبَ العربيَّ لايكون نصيبُه إلا الخسارةَ ومزيدًا من الأضرار، فهناك مخافة واقعيّة أنه

بعد تقبّل إسرائيلَ عنصرًا طبيعيًا في العالم العربي، ستظهر على سطح العلاقات العربية – العربية مشكلاتٌ مُعقَّدة تُدخله في حلقة من العنف والعنف المُضادّ الذي سيُحَرِّكه إسرائيلُ والدولُ الغربيّة. وبذلك فالعالمُ العربيُّ مُرشَّحٌ فيما بعدَ الاتفاق مع إسرائيلَ لمزيد من عَدَم الاستقرار، وعلى ذلك أدلةٌ قويّةٌ نابعةٌ من المُعطيَات الواقعيّة*، فبينا أن «إسرائيل» لديها القدرةُ الكافيةُ على أن تُروِّج لنفسها عَبْرَ وسائل الإعلام العالميّة – ومُعْظَمُها موالية لها بقيادة الغرب وأمريكا – أنّها واحةُ السلام والمُستَقَرُّ الآمِن للاستثمار الدوليّ والتكنولوجيا الدوليّة المتكاملة؛ فهي الموضع الأجدر بكل من يرغب في الاستثمار في منطقة ما يُسَمّى «بالشرق الأوسط»، إذًا أن إسرائيلَ لديها خطةٌ استراتيجيةٌ واضحةٌ وأهدافُها منها واضحةٌ، بينما العَرَبُ كوحدة متكاملة استراتيجيّتُهم غيرُ واضحةٍ وكذلك أهدافُهم منها غيرُ واضحة، ولاسيّما وأنّهم يُوَاجِهُون فيما بينهم التحدّيَ* السياسيَّ المُتَمَثِّل في النزاع على الحدود؛ وفي البطالة؛ وفي عدم التمثيل المُوَحَّد في المحافل الدولية.. والتحدّيَ الفكريَّ الحضاريَّ؛ حيث ينقسمون بين مُتَوَجِّه شطرَ الغرب وبين مُتَوَلٍّ شطرَ الشرق.. والتحدّيَ الاقتصاديَّ؛ فإن العالم العربيّ باستثناء الدول النفطيّة يعيش أزمةً اقتصاديّةً حادّةً ولاسيّما فيما بعد حرب الخليج التي امتَصَّتِ القُدُرَاتِ الاقتصاديّةَ الخليجيةَ التي كانت في الواقع أهمَّ المصادر الماليّة للعالم العربيّ كله، ويَخْشى المُحَلّلون لأوضاع العالم العربيّ أن هذه التحدّياتِ الثلاثة ستَتَقَوَّىٰ فيما بعدَ انتهاء مسرحيّة السلام، وتتوفر على إهدار القُدُرَات العربيّة مما يمنع العالمَ العربيَّ من اتّخاذ استراتيجيّة وأهداف واضحة؛ حيث إنه غيرُ مُرَشَّح للاتفاق حولَ الكثير من قضاياه. وعلى ذلك فتكون «إسرائيلُ» وحدَها التي تَقْطِف ثمارَ السلام على الصعيدين: السياسيّ والاقتصاديّ معًا، ويكون العالمُ العربيُّ يعيش ضبابيّة مستقبليّة* وفي ضوء هذه الحقائق والمُعْطَيَات، يجوز بل يجدر بجنرالات وقادة «إسرائيل» أن يَصْدُروا في التعبير عن مواقفهم نحوَ العرب، عن الشعور القويّ بالقوة والعلو والإعجاب بالذات الإسرائيليّة، ويُطلِقوا تصريحاتٍ ساخنة من خلال الصهورة الكلاميّة المُوحِيَة المُتَضَمِّنَة لألدَغ السُّخْرِيَّات وألسَع التندُّدات نحوَا العرب*.

وكان أحدثُ هذه التصريحات ما جاء على لسان «يهودا باراك» الجنرال الإسرائيليّ السابق و وزير خارجيّة إسرائيلَ الحاليّ في الاحتفال الذي عقدته بالولايات المُتَّحِدة مُؤَخَّرًا* المنظمةُ الرئيسة للاتحادات اليهودية الأمريكية:

«إن المفاوضات الإسرائيلية مع «سوريا» تجري من خلال موقفِ قوّةٍ يُتِيح لإسرائيلَ مستوىً عاليًا من المُنَاوَرَة بدقة» .

وأضاف: «إنّ التغييرَ في التفكير العربيّ يَنْبُعُ أساسًا من إدراك العالم العربيّ لقُدُرَاتِنا؛ حيث

وكان القائمون على الانتفاضة، والإسلاميّون في كل مكان، والمؤمنون بأنّ العدوَّ الإسرائيليَّ لا يجوز معه في شريعة الغيرة والضمير والإباء أيُّ اتفاق وتصالح وتسالم، أذكياءَ جدًّا، عندما أكّدوا منذ اليوم الأوّل أنّ الطريقَ الوحيدَ إلى تحرير «القدس»، واستعادة الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، واسترداد الحقّ السليب، والكرامة المُضَاعة، والشرف المدوس؛ إنّما هو الكفاح المسلّح والجهاد المقدّس؛ وكلُّ سبيلٍ غيره إنّما هو إضاعةٌ للفرصة، وتوقيعٌ على الاستعباد، وتورّطٌ في المأزَق، وإتاحةُ الوقتَ للعدوّ ليُحقّق من أهدافه مالم يُحَقّقه لحدّ الآن.

واليوم وقد قَطعَ «السّلاميّون» منّا أشواطاً على طريق السلام والتعايش السلميّ وتطبيع العلاقة مع العدوّ، وشَطبِ كلمة «العدو» من كل كتاباتهم وخطاباتهم وقاموس حياتهم، يكادون يَنْدَمُون على ما صَنَعُوه، ويكادون يُصَدّقُون ما أكّدَ لهم أشقاؤهم في العقيدة والمصير؛ ولكن يَحَارُوْن ما يفعلون وقد فاتهم القطارُ، وضاعت عليهم الفرصةُ. «وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُوْدُ وَلاَ النَّصَارٰى حَتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»(البقرة/١٢٠).

تحية عطرة مباركة إلى الفتية الصامدين

إنّ شهادة التأريخ، وشهادة الصّراع مع اليهود والنّصارى، وشهادةَ القرن الحاضر بكامله وهو قرن الصراع المُبَاشِر الحَادّ مع العدوّ، تُؤَكّد أنّ الثقة بوعوده وعهوده مثلُ الثقة تمامًا بوعود الشيطان «إذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّي بَرِئٌ مِّنْكَ، إِنّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العٰلَمِيْنَ» (الحشر/١٦).

وقد ثَبَتَ مرّاتٍ لا تُحْصَىٰ بما لايَدَعُ مجالاً للشّكّ أنّ الطريقَ الوحيدَ إلى تحرير «القدس»، وكسبِ القضية، وهزيمةِ العدوّ كان وما زال وسيظلّ طريقَ الجهاد والنضال المسلّح الذي يؤمن به العدوُّ مع الأسف أقوى من إيماننا به، ويأخذ به في واقع العمل بصورةٍ أفضلَ من أخذنا به.

وتحيّةٌ عَطِرَةٌ مباركةٌ إلى الفتية المناضلين، والشباب الصامدين، المزروعين بكلّ كبرياء وإباء في أرضهم ووطنهم: أرض العروبة والإسلام وتراب العقيدة والإيمان، الذين لم يَفُتّ في عَضُدِهم حديدٌ ولا نارٌ، ولا ترغيبٌ ولا ترهيبٌ، ولا عمليّة إحباطٍ وتيئيس، ولا خياناتُ الأقارب، ولا خداعاتُ الأجانب، ولا عقاباتُ العدوّ، ولا ظلمُ ذوي القربى، ولا المجازرُ العديمةُ النظير التي شَهِدُوها في كلّ من الأقصى المبارك والمسجد الإبراهيميّ في «الخليل»، و«عون قارة»، و«نحالين»، و«خان يونس»، وحاجز «إيريز»، بالإضافة إلى مجزرة «قانا» التي شَهِدَها الشعبُ اللبنانيُّ في جنوب «لبنان»، وما سَبَقَها من المجازر في «صبرا» و«شتيلا» وغيرهما.

تحيّة إلى أولئك المُصيرّين على المبدإ، الثابتين على المعنى الثابت والعمل المُشَرّف، والصانعين للمجد، الكاتبين حظّهم بالدماء والدموع الطاهرة، القابضين على الجمر بين المُتَفرّجين، الماشين على الأشواك بين جموع الخاطين على الأزهار المُشْتَرَاة بدمائهم، المفروشة على أشلائهم.

تأكدوا أنه لن يصحّ إلا الصحيح

تأكّدُوا أنه لن يَصِحَّ إلا الصحيحُ، ولن يباركَ اللهُ إلا ما ينزل على مستوى رضاه ومبدإ مشيئته.

وتأكّدُوا أن الدماءَ الطاهرةَ تُنبِت أزهارًا عَبِقة وجَنّاتٍ غَنّاءَ ونعيمًا لا يَنْفد، وأهدافًا تُشْرِقُ إشراقة النهار الباسم، وأنّ الظلم والعدوان لا يلقيان حتفهما إلا بأيدي المُضَحّين بالمُهَج والأرواح، المستقبلين للموت، والمُرحّبين بالشهادة في سبيل الله، وسبيل الحرمة والمال، والأرض والعرض.

إن حتميّة زوال إسرائيل يُوَقّعُ عليها واقعُ التأريخ البشريّ وسنةُ الله في الكون، والأيّامُ في انتظار السُّعَدَاء الذين بأيديهم يَتِمُّ هذا الزوالُ.(٢٠)

لن تضيعَ القدسُ ووراءَها المليارات من المسلمين

ماذا يمنع المسلمين عن التوحّد

إذا كان المسيحيون – وعلى رأسهم الأمريكان والبريطانيّون وعامّةُ الأوربيين – يستطيعون أن يتحالفوا انطلاقًا من معاداتهم للمسلمين مع اليهود قَتَلة نبيهم عيسى – على حدّ زعمهم بالعكس مما يعتقده المسلمون بحكم نصّ كتابهم – فيزرعوا الغرسَ اليهوديَّ الخبيثَ في قلب العالم العربيّ وفي أرض «فلسطين» الإسلامية العربيّة، ويُعلنوها دولة يهوديّة* ذاتَ سيادة مستقلة يوم ١٤/ مايو ١٩٤٨م قائمة على هذه الأرض الإسلاميّة المُغْتَصَبَة من المسلمين ظلمًا وعدوانًا، وعلى مرأى ومسمع من العالم كلّه، وبمحاولة وتأييد من قبل القوى المسيحيّة وغيرها المعادية للإسلام.

إذا كان ذلك ليتحقق .. يتحقّق التناقضُ، ويجتمع النقيضان، ويتصافح الضدّان، ويتلاحم العدوّان، ليصطلحا على الانتقام من الإسلام والمسلمين، ويتقاسما الأدوارَ لاستئصالهم، وتعذيبهم وتشريدهم لأمد بعيد.

فماذا يمنع المسلمين – ودينُهم واحد، وكتابُهم واحد، ونبيُّهم واحد، وعقيدتُهم واحدة، وقبلتُهم واحدة، ومشاعرُهم وشعائرُهم واحدة – أن يتّحدوا ويتضامنوا، ليقفوا صفًا واحدًا ضدَّ العدوّ الماكر الذي

---

(٢٠) فلسطين في انتظار...ص: ٣٦٣.

لعنه الله وغَضِبَ عليه أو أضلّه عندما آثر الضلالَ على الهدى.

بين الخليفة العثماني وبين حكامنا وقادتنا اليوم

وإذا كان الخليفة العثمانيّ «عبد الحميد» ١٢٥٨-١٣٣٦هـ = ١٨٤٢-١٩١٨م) لم يرضَ أن يهب اليهودَ ذرّةً من أرض «فلسطين» مقابلَ تسديد جميع ديون الخلافة المعانية من أصعب الأزمات الاقتصاديّة في حياتها إلى جانب أطنانٍ من الذهب أغراه بها اليهودُ الخبثاءُ.

فماذا يمنع قادةَ الدول العربية وحكامَ البلاد الإسلاميّة – ولديها اليومَ من الذهب والفضة و «الخيل المسوَّمة» و«الأنعام والحرث» والقناطير المُقنْطرَة من الأموال ما لم يكن لدى «عبد الحميد» العثماني – أن يرفضوا جميعَ التعويضات ويَصْمُدُوا أمام جميع التهديدات والتحدّيات والترغيبات والإغراءات، التي يَلمَحُ بها الصهاينةُ والمسيحيّون وعلى رأسهم الأمريكان المحكومون باليهود، ويقولوا بصوت واحد: إننا لن نتنازل عن قدر بُوْصَةٍ من أرض «فلسطين» الإسلاميّة بكل ما يُوْجَد على ظهر الأرض من الأموال والزينات؛ فبما وهبنا الله عزّ وجلّ بفضله هو خيرٌ مما تجمعون، ويصارحوهم بما صارح به سيّدُنا سليمانُ عليه السلام ملكة سبأ:

«أَتُمِدُّوْنَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَـٰنِـَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُوْنَ» (النمل/٣٦) .

ويَتَحَدَّوْهُمْ تحدّيًا واقعيًّا، تحدّيًا يَصْحَبُه العملُ الجادُّ الصُّلبُ الذي تعوّده العربُ المسلمون عَبْرَ تأريخهم؛ حيثُ لم يُرَاهِنُوا على مُجَرَّد الكلمات تقال والأقوال العريضة الفارغة تُطْلَق؛ وإنّما كان رصيدَهم في التحدي والفخار والتهديد وإباء العار، الإجراءُ العمليُّ الذي كان يَرْدَعُ الخصمَ ويُرْغِم العدوَّ على الانتهاء من غيّه والتراجع من إرادته.

يَتَحَدَّوهُمْ كما تَحَدَّاهُمْ سليمانُ عليه السلام، ويقولوا لهم:

لنأتينّكم أيّها اليهودُ الملعونون بجنودٍ لا قِبَلَ لكم بها ولنُخرجنّكم من أرض «فلسطين» أذلة وأنتم صاغرون.

المسلمون عربًا وعجمًا يقدرون على إخراج الصهاينة من كل شبر من أرض فلسطين

إن المسلمين عربًا وعجمًا يقدرون اليوم – على جميع العِلاّت التي توجد فيهم – أن يُخْرِجوا الصهاينة من كل شِبْرٍ من الأراضي العربيّة الإسلاميّة التي اغتصبوها بتعاون من القوى المعادية للإسلام، إذا جَمَعُوا شَمْلَهُمْ، ووحّدوا صفَّهم، ورَتَّبُوا بيتَهم، وراجعوا عقولهم، وحاسبوا نفوسَهم، واستجابوا للقاسِمِ المشترك من العقيدة والمصير، والهموم والأحلام، ووحدة التأريخ والثقافة، وكتاب الله الخالد، والأراضي العربيّة المحمديّة التي يأخذ بعضُها بحجز بعض، واللغة العربية التي

يُفضّلونها جميعًا على جميع لغات الدنيا باختيار الله لها وتقديمه إيّاها على غيرها.

ولا سيّما لأنّ الأعداءَ الألدّاءَ يَتَحِدون ليَنْقضُّوا على الإسلام وأهله، وليكافئوا المُغْتَصِبَ الخبيثَ للأراضي الإسلاميّة، ويعترفوا له بالحقّ التأريخي المزعوم فيها، وليُرْضُوا أربابَ البيت الأصلاءَ والسكان الأقحاحَ من الفلسطينيين بقبول التعويضات البَخْسة عن الأرض والدار. والتعويضاتُ هذه بدورها إنما تُسْتَجْمَعُ من العرب والمسلمين بشكل أو بآخر، لا من اليهود الملعونين.

سل الرماح العوالي عن معالينا

القدسُ له مكانة عظمى في قلوب المسلمين التي تخفق بها في مشارق الأرض ومغاربها؛ لكونها تحتضن المسجدَ الأقصى الذي بارك اللهُ حوله، ومسرى الرسول الكريم ومَعْرَجه إلى السماوات العلى، والمسلمون قد يحتملون الضيمَ فيما سواها؛ ولكن لن يحتلموا أيَّ تفريط بشأنها، فضلاً عن أن يُفكّروا في التخلّي عنها مقابلَ السلام الخادع الذي ظاهرُه الرحمة وباطنُه يَطْوي عذابًا على عذاب. رَحِمَ الله تفكيرَنا، وغَفَرَ لنا إهمالنا في شأن هذه الأراضي الإسلاميّة المباركة. وسَدَّدَ خُطانا، وأخذ بأيدينا إلى الرشد، وألهمنا الطموحَ و الفتوّةَ والشجاعة، وجَعَلنا نأبى الضيمَ الذي ظِلنا نأباه عَبْرَ تأريخنا الطويل:

سَلِ الـرِّمَـاحَ العَـوَالِـيْ عَنْ مَعَـالِيْنَا
وَاسْتَشْهِدِ البِيْضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِيْنَا

موقف واحد من عرفات حوّله محبوبًا في أعين المسلمين

ورغمَ تفريط السيّد «ياسر عرفات» بكثير من الثوابت فيما يتعلّق بالقضيّة الفلسطينية، فإن صمودَه في قمة «كامب ديفيد» الثانية أمام قضية «القدس» بالذات ومصارحتَه الراعيَ الأمريكيَ: «الشرطيّ العالميّ» أنه لايملك اتخاذ قرار بشأن «القدس» والأقصى؛ لأنهما ملكُ ومسؤولية العرب والمسلمين كافة.. حَوّله فجأة قائدًا محبوبًا لدى المسلمين عامّة والفلسطينيين خاصّة، مما يدلّ على مدى تعلّق قلوب المسلمين بهذه القضية الأولى بين القضايا الإسلامية كلها. ولو أنّ «عرفات» وَقَفَ غيرَ الموقف الذي وقفه لمَجَّه العربُ والمسلمون كلُّهم، ولتناولوه من الملام بما لم يَشْهَده تأريخُ الإسلام والمسلمين، ولما غفر له التأريخُ هذه الغلطة الكبرى، ولما قبل له المسلمون في الدنيا كلّها أيَّ عذر، ولكان قد عاد أقبَح قائد في التأريخ الإسلاميّ. إنّ «عرفات» بموقفه هذا أثبت جراءتَه في جانب، واحتفظ بماء وجهه في جانب آخر، وأعاد القضيّة إلى إطارها الصحيح في جانب ثالث.

ومنذ فشل مهزلة محادثات السلام في قمة «كامب ديفيد» الثانية سَارَعَتِ الأوساط الأمريكية الإسرائيلية إلى تحميل الطرفِ الفلسطينيّ وحدَه مسؤوليّة الفشل، وعاد الراعي الأمريكي يتناوله بالملام

والاتهام، ويُهدّده ويُوَعِّدّه، ويمارس جميعَ الضغوط لحمله على الرضى بقبول الموقف الإسرائيليّ من تسليم «القدس» كلّها لهيمنة العدو الإسرائيليّ كعاصمة له أبديّة !.

إن الضغوط السافرةَ التي يُمَارسها «بيل كلينتون» نحوَ الفلسطينيين لو سَاءَله أحد في شأنها وطلب منه علة معقولة لهذا الانحياز السافر والتأييد المكشوف للصهاينة، لما قَدَرَ على الجواب سوى أن يقول فيما إذا كانت لديه جراءة خلقيّة: إن العلّة الأساسيّة إنما هي معاداتُنا للإسلام والمسلمين، ووقوعُنا في الغَرَام مع اليهود التي تَتَّصل بها مصالحنا السياسيّة أيضًا؛ لأنّها سيطرتِ اليومَ على السياسة والاقتصاد والإعلام والاستخبارات لدينا، وكادت تُتَرْجِمُ بروتوكولاتِ حكماء صِهْيُونَ إلى واقع عَمَليّ في كثير من النواحي الحياتية في المجتمع الأمريكيّ الذي يكاد يعود مُسْتَعْبَدًا للسياسة اليهوديّة.

أليس عارًا على «كلينتون» يفضحه على قارعة الطريق وفي المحافل الدوليّة كلّها أن يَنْصِبَ نفسَه وسيطاً في القضية الفلسطينية وراعيًا لمحادثات السلام المزعوم بين الفلسطينيين والعدوّ الإسرائيليّ، ويُهَدِّد بنقل السفارة الأمريكيّة للقدس؛ لأنّه بذلك لا ينتهك فقط قرارَ مجلس الأمن ٢٤٢ ويضرب عُرْضَ الحائط جميعَ المرجعيّات* التي يعتمدها عملية السلام منذ أن بُدِئ عرضُ مسلسلها ابتداءً من مؤتمر «مدريد»، وإنّما ينسف في الوقت نفسه مصداقيةَ* الولايات المتحدة كوسيط في القضية وراع لمهزلة السلام.

الوسيطُ إذا أبدى انفعاليّته وعصبيّته بل انحيازَه السافرَ إلى أحد الطرفين، فمعنى ذلك أنه بدوره طرفٌ في القضية المعنيّة وليس وسيطاً يقدر على مراعاة مُقْتَضَيَات العدل التي هي الركيزةُ* التي تقوم عليها الوساطة.

إنّ الولايات المتحدةُ ظلّتْ منذ اليوم الأول أكبرَ مربية حانية لإسرائيل، ما فتِئَتْ تغدق عليها المعونات الماديّة والمعنوية التي جعلتها أكبَر قوة نووية وعسكريّة في قلب العالم العربيّ وفي وسط الدول العربية الإسلامية، تتحداها وحدَها جميعًا، وتُهَدِّدها بشكل سافر، وتفعل ما تريد دونما رادع دوليّ، أو تأديب أمميّ، أو توبيخ أمريكي، أو ملام بريطاني.

انتهت المفاوضات الاستسلامية إلى مرحلة حرجة

قد انتهتِ المفاوضات الاستسلاميّة التي رَضِيَ بها الفلسطينيون والعربُ، في غياب النخوة العربية والحميّة الإسلاميّة وروح الجهاد الإسلامي التي هي وحدَها القادرةُ على استعادة المجد السليب والحق الفقيد، انتهتْ إلى المرحلة الحَرِجَة، مرحلةِ الاستحقاقات النهائيّة، وعلى رأسها «القدس»، التي تحاول الولايات المتحدة جهدَها أن تدفعها بكاملها هديّة إلى إسرائيل ربيبتها العشيقة. وبدأ «البيتُ الأبيضُ» في شعور باليأس والإحباط يُطْلِق التهديداتِ لتخويف الفلسطينيين ليتنازلوا فورًا عن الحقوق الأساسيّة التي

تُشَكِّل جوهرَ قضيتهم وهويتهم الوطنيّة، وواكبتْ هذه التهديداتِ والتخويفاتِ حملةٌ مبيتةٌ من خلال الآلة الإعلاميّة الأمريكية العملاقة للضغط على الدول العربية والإسلامية حتى تَرْضَى بالتوقيع النهائيّ على ذلّها وتبعيّتها.

ولئن صار الأعداءُ تتحد مُكَشِّرَة أنيابَها تود أن تبتلع «القدسَ» كلّها، وتطوي مِلفَّ القضية الفلسطينية للأبد بشكل يظلّ العربُ والمسلمون كلُّهم يعضّون بنانَ الندم لوقت طويل حتى يأتي «صلاحُ دين» جديد – وسيأتي إن شاء الله – فماذا يمنع العربَ والمسلمين أن ينهضوا من رقدتهم، ويُرَتِّبوا صفَّهم ، ويكونوا صوتًا واحدًا ويدًا واحدةً، ويَهْجُمُوا على العدو الماكر الخبيث هجمة رجل واحد، تنفي عنهم جميعَ تُهَم الإهمال والقعود والكسل، وفقد الحمية والنخوة والإباء، والرضا بالضيم، وقبول الدنيّة حتى في أعزّ الحقوق، وأحبّ الحرمات، وأقدس الشعائر، وألذّ المشاعر التي يستميت دونَها حتى الأذلاءُ النذلاءُ، فما بالُ العربِ أشبالِ محمّد وأخلافِ أبي بكر وعمر وخالد بن الوليد وأبناء الصحراء الذين لايعرفون إلاّ الصدقَ والحقَّ؟!.

المسلمون والعربُ بأمس حاجة إلى التضامن والاتحاد

في هذه الساعة الحرَجة عاد العربُ والمسلمون في أمسّ الحاجة إلى الاتحاد والتضامن والتعاون. إنه من الخطورة بمكانٍ أن يظلّ الصفُّ العربيُّ يعتريه التمزّقُ والتفكّكُ والهزليّةُ مكانَ الجديّة، والعدوُّ الصهيونيُّ وراعيه الأمريكي يواصلان العملَ لتأكيد السيطرة على الأراضي العربيّة كلّها، ولاقتلاع ما بَقِيَ فيها من الجذور العربيّة الإسلاميّة، ولإنشاء الهيكل المزعوم فوق أنقاض الأقصى المبارك.

قضيةُ القدس والفلسطين ليست قضية محلية أو شخصية يتقدّم فيها ويتراجع رجلٌ واحدٌ مثلُ «عرفات»، أو قومٌ واحدٌ مثلُ الفلسطينيين؛ وإنما هي القضيّةُ الإسلاميّةُ العالميّةُ الأولى التي يجب أن يَهُبَّ لها جميعُ العرب والمسلمين قياداتٍ وشعوبًا وحكامًا وجماهيرَ.

إن قضيّةً مثلها لن تضيع.. لن تضيع القضيةُ الفلسطينيةُ، ولن يكسبها العدوّ – إن شاء الله – كما يودّ وراءَها هذه المليارات من المسلمين الذين يؤمنون بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، وبالقرآن كتابًا إلـهيًّا خالدًا، وبالكعبة قبلة مُوَحَّدة، وبالأراضي العربيّة الإسلاميّة ملكاً محمديًّا وَرِثَتْه الأمةُ الإسلاميّةُ كلُّها.

ألا لن يضيعَ حقٌّ ووراءَه طلابُه أمثالُ المسلمين أُبَاةِ الضيم، ومحاربي الظلم، وناشري العدل.

«وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إنَّ الله لقويٌّ عَزِيْزٌ» (الحج/٤٠) ([٢١])

([٢١]) كلمة العدد، مجلة الداعي، العدد ٦، السنة ٢٤، جمادى الثانية ١٤٢١هـ = سبتمبر ٢٠٠٠م .

الصهاينة وأبناء الغرب لن يدركو اللذة الإيمانية التي يَتَمَلأ بها أطفال الحجارة وفتية الانتفاضة

من منا لم يَرَ ولم يقرأ عَبْرَ الصحف والتلفزيون صُوَرَ البطولات الرائعة للأطفال والشباب الفلسطينيين، الذين قابلوا الحديدَ باللحم؛ والصواريخَ والدبابات بالجسد؛ والآليّات العسكريّة الإسرائيليّة الضخمة بالصدور المُفْعَمَة بالإيمان، والنفوس العامرة بالحبّ لله ولرسوله ﷺ .

أطفالٌ أبرياءُ تُلاحِقهم جنودٌ إسرائيليّون، وتَصَبُّ عليهم الرصاصات، وتَفْتَحُ عليهم النيران فتحًا عشوائيًا. وما ذنبُهم إلاّ أنّهم أرادوا أن يذودوا بني الخنازير والقردة وعبدةَ العِجْل والطاغوت عن الأرض العربيّة الإسلاميّة التي تحتضن الأقصى أوْلى القبلتين ومَسْرَى الرسول ﷺ .

شبابٌ مُتَحَمِّسون مشتعلون إيمانًا، ملتهبون حماسًا، مُمْتَلِؤُون غيرةً وإباءً سَئِمُوا الليلَ الطويلَ، والظلامَ الكثيفَ، وغطرسة العدو، وتخاذلَ الأصدقاء، وجبنَ الأقرباء، ومؤامراتِ البُعَدَاء؛ فأرادوا أن يُطارِدوا هذا الموقفَ غيرَ المرضيّ وهذه الحالة الكريهة وهذا الوضعَ المُزْرِيَ بأهل الإيمان وحاملي القرآن وأمّةِ محمد عليه الصلاة والسلام، ولم يجدوا سلاحًا سوى الحجارة، ولم يجدوا ما يبذلونه لذلك سوى نفوسهم البريئة وأرواحهم الزكيّة؛ فضَحَّوْا بها بسخاء؛ لأنهم عَلِمُوا أنّ شاطئ العزّ والكرامة لا يمكن الوصولُ إليه إلاّ بعد عبور بحور من الدّماء الساخنة الفوّارة، والتضحيات الجسيمة المِغْوَارة.

أطفالٌ لم يذوقوا حُلوَ الحياة ومُرَّها؛ ولكنّ ذاقوا حلاوةَ الإيمان، فقدَّمُوا نفوسَهم نذورًا في سبيل استرداد العزّ السليب، والمجد الفقيد، والكرامة المُهَانَة، والعِرْض المُضاع.

أطفالٌ وشبابٌ تُصيب الرصاصاتُ المُسَدَّدَةُ الغادرةُ المنطلقةُ من أفواه بنادق بني الخنازير والقردة قَتَلةِ الأنبياء، أفئدتَهم، فيَتَمَدَّدون على الأرض، ليستريحوا للأبد، فتَضُمُّهم أذرعُ الملائكة، وتتساقط عليهم الحورُ العِينُ، وتستقبلهم الأرواحُ المقدَّسة، وتعتزُّ بهم الحياةُ الأبديّة، وتُعَانِقُهم جنّاتُ النعيم.

إن الصهاينة وأبناءَ الغرب المُوَالِين لهم لآخر الحدود، من أُوْلِي الحضارة المادّية، الذين يُقيِّمُون كلَّ شيء بالمادّة والمِعْدة، والمال والثراء، والأثاث والرياش، لن يُدْرِكُو اللذةَ التي يَشْعُرُ بها هؤلاء الأرواحُ البريئةُ الطاهرةُ فورَ خروجها من أجساد هؤلاء المؤمنين المتسابقين إلى رضى الله تعالى.

مواقفُ مُثيرةٌ، ومَشَاهِدُ إيمانيَّةٌ روحانيَّةٌ مُؤَثِّرة زَرَعَها الفتيةُ المؤمنون في «فلسطين» عَبْرَ

الأسابيع العديدة، التي كتبوا خلالها عبارتِ المجد بالدم القاني ، واليقين الحاني، والحبر الإيمانيّ.. عباراتٍ لن تَمَّحِيَ مهما امَّحَتِ الدنيا، وتلاشتِ النقوشُ.. عباراتٍ لن يقرأها مؤمنٌ إلاّ ويَتَجَدَّد إيمانُه، ويَنْتَعِش فكرُه، ويَتَقَوَّىٰ يقينُه، ويزداد حَمَاسُه، ويَتَعَزَّزُ شعورُه بأنّ الصهاينة المَلاعِينَ لن يفهموا إلا لغة القوة، ولن يُرْهِبَهم إلاّ صوتُ الجهاد، ولن يُرْغِمَهم على التنازل عن الحقوق التي اغْتَصَبُوها إلاّ الانتفاضة الشاملة، والثورةُ العارمة، والحربُ الحاسمةُ الفاصلةُ التي تُرَاقُ فيها دماءُ الشباب العرب، فتَتَشَبَّعُ الصَّحَارَي العَرَبيّة والأراضي الفلسطينيّة، ويَغْرَقُ فيها بنو صِهْيُونَ للأبد إن شاء الله.([٢٢])

الصهيوني المتطرف لم يكن قد تصوّر أنه سيحدث ما حدث

ربّما لم يكن بحسبان الصهيوني المُتَطَرِّف «أرئيل شارون» زعيم حزب «الليكود» الصهيونيّ عندما دَنَّسَ الأقصى المباركَ برجليه النجستين يوم ٢٨/ سبتمبر ٢٠٠٠م (الخميس ٢٧/ جمادى الثانية ١٤٢١هـ) في تحصين أمنيّ قِوَامُه ثلاثةُ آلاف شرطيّ إسرائيليّ وَفَّرَتْها له حكومةُ «باراك» اليهوديّ.. لم يكن بحسبانه أنّ الموقفَ يتفجّر بهذا الشكل الرهيب؛ لأنّه يكون قد ظَنَّ أن الجيلَ الجديدَ من الفلسطينيين قد نَشَأ على ثقافة «التطبيع» والعَلْمَنَة والعَوْلَمَة، ومعاني الذلّ والاستسلام، ومهازل اتفاقيّات السلام.. ويكون قد تَشَبَّع بالدسائس والمؤامرات ومحاولات التخذيل والتقعيس التي قام بها المخدوعون المغرورون عَبْرَ هذه السنوات العِجَافِ* التي لم تُثْبِتْ سوى الخضوع والركوع والسجود للإلـٰـهة «أمريكا»، وللإلـٰـهة «إسرائيل».

أعتقد أنّه لم يكن قد تَوَقَّع أنه من خلال تدنيسه للأقصى يتعرّض لخلايا الزنابير؛ بل لأجَمَات الأشبال التي انقضّت على أوكار الصهاينة بأجسامها العارية، وصدورها السافرة، واتّخذت من لحمها مِخْلَبًا، ومن حجارتها رصاصًا، ومن إيمانها صاروخًا، ومن بسالتها دبّابة، ومن عقيدتها الثابتة ثبوتَ الجبال مدفعيّة، انهارت أمامها أسلحةُ العدوّ وذخائرها المُكَثَّفة، وأحدث زلزالاً عنيفًا هَزَّ من تحت قدميه الأرضَ، لا في «فلسطين» وحدَها؛ ولكن في العالم كله.

أكدت الانتفاضة

أثبتت الانتفاضةُ مرّةً ثانيةً حتى لكل أعمى وأصمّ وأبكم لا يرى إلا المصالحَ، ولا يسمع إلا إيّاها، ولا ينطق إلاّ بها، أن الجماهيرَ الفلسطينيّة والشعبَ المسلمَ العربيَّ والعجميَّ في العالم كله، ترفض جميعَ صور التطبيع ومهازل السلام التي خاضها الانهزاميّون من أبناء الأمّة، الذين لم يَثِقُوا بما قاله القرآنُ في

([٢٢]) كلمة المحرر، مجلة الداعي، العدد: ٨، السنة: ٢٤، شعبان ١٤٢١هـ = نوفمبر ٢٠٠٠م.

اليهود الملعونين، ووَثِقُوا في الوقت نفسه باليهود، وآمنوا بأنّهم سيلتزمون بالوعود، ويتقيّدون بالمواثيق.

وأثبت أسلوبُ العدوّ في التعامل مع شباب وأطفال الانتفاضة أنّ إقامة اتفاقيّة معه للأمن والسلام، سَرَابٌ خادع ، وسمٌّ نَاقِعٌ ، وحُلْمٌ لا يعرف تأويلاً، وتيهٌ بلا نهاية، وجهدٌ ليس له غاية.

أكدتِ الانتفاضةُ أنّ الشعبَ الفلسطينيَّ – ولا سيّما شبابه وأطفاله – لازال ولا يزال مستعدًا كلَّ الاستعداد لتقديم التضحيات الجِسَام إذا دعتِ الحاجةُ من أجل الحفاظ على أرض المُقدَّسات: أرض الإسراء والمعراج، أرض القبلة الأولى.

وأكدتْ كذلك أنّ الزعماءَ والقادةَ والحكّامَ مهما فرَّطوا ولا يزالون يُفرِّطون في القضية، وقدَّموا ولا يزالون يُقدِّمون تنازلاتٍ تِلوَ تنازلات، ويقبلون دَنِيَّاتٍ تِلوَ دنيّات؛ فإنَّ الشعبَ الفلسطينيَّ والشعوبَ الإسلاميَّة والعربيّة كلّها لم ولن تُفرِّط فيها، وأنّ قرارَها واضحٌ حاسمٌ، وقولها فصلٌ قاطعٌ، وعملها على مستوى رضي الله تعالى إن شاء الله ، وموقفها مُشَرِّف جليلٌ، وعزائمَها لن تَقْهَرَها مؤامراتُ جميع الأعداء .

أكدتِ الانتفاضةُ أنّ القادةَ والساسة مهما تَعَامَلُوا بالتردّد والتلكؤ، وبلُغَةِ المصالح السياسيّة الرخيصة، وبمعاني «الاعتدال» و«التوازن» التي اختَرَعَها الأعداءُ وزَيَّنُوها في عقول القادة؛ فإن الشعوبَ الإسلاميّة لا تعرف إلاّ موقفًا ثابتًا واحدًا لن يتغيّر ولن يتبدّل، وهو أن «إسرائيل» لن تؤمن بالصلح، ولن تتعامل معه، ولن تصبر عليه، ولن تَتَّخِذه سلوكاً معمولاً به؛ فلا يجوز معها الصلح، ولا يجوز إضاعة الوقت والمال في هذه السبيل، ولا يجوز لذلك التنازلُ عن كثير من الثوابت، والتفريط بكثير من الحقوق التي يُوجِب كلٌّ من الشريعة والغيرة والنخوة والإباء والوطنية والعربية الإصرارَ عليها.

أكدتِ الانتفاضةُ أنّ الشعبَ الفلسطينيَّ إذا سار خطوةً نحو التضحية والفداء، فإن الشعوبَ الإسلاميّة من أقصى الأرض إلى أقصاها تتجاوب معه خطوتَيْن، بكل ما تملكه من نفس ونفيس وغالٍ ورخيص، ولا يحول دونه ودونها – إن حال – إلاّ الثغورُ والحدودُ التي افترضها إنسانُ العصر الأخير، وإلاّ العراقيلُ التي تزرعها القادةُ والساسةُ.

أكدتِ الانتفاضةُ أنّ قلوبَ المسلمين كلّهم عَرَبًا وعَجَمًا تخفق خفقة قلب رجلٍ واحدٍ، وأنّ عقولهم جميعًا تُفكِّر تفكيرًا واحدًا، وأنّهم في الشرق والغرب يقفون موقفًا واحدًا، موقفًا غنيًّا عن الاعتبارات، موقفًا نزيهًا عن المصالح، موقفًا لاتخترقه المؤامراتُ والدسائسُ، موقفًا صُلبًا لايَخَاف «واشنطن»، ولا الاتحادَ الأوربيَّ، ولا التكتُّلَ الشرقيَّ، ولا تفتّ في عضده مخافةُ الآليّة العسكريّة الصهيونيّة الثقيلة التي صَنَعَتْها الولاياتُ المُتَّحِدةُ والغربُ على حساب إضعاف العالم العربيّ.

إنّ الإيمانَ الأصيلَ الراسخَ الراسيَ المُخَالِطَ شِغَافَ القلب، والجاريَ في العروق، الساريَ في وَشَائِج اللحم، لايعرف التخاذلَ والانهزامَ، والانكسارَ والاستسلامَ، والتراجعَ والتنازلَ، والضَّحْل والخوفَ، والجمودَ والبرودةَ، والخنوعَ والخضوعَ، والسجودَ للأعتاب، إلا السجودَ لله الواحد القهّار، ولا يعرف الجبنَ والفرارَ باسم المصالح ومُقتَضَى الساعة والأمر الواقع، إنّه لا يفهم فتوى العقل، وإنما يُؤْثِر قرارَ الحبّ، ووصيّةَ الولاء، و وحيَ الوفاء، وإشارةَ الروح.

الشباب الفلسطيني الأعزَّلَ ذكَّرنا بصناعة الموت التي كنا قد نسيناها

إنّ الشبابَ الأعزَلَ في أرضنا الإسلاميّة العربيّة «فلسطين» قد أعادوا إلى ذاكرتنا فنَّ صِنَاعة الموت التي حَذِقَها الصحابةُ وأتقنها المخلصون السائرون على دربهم عَبْرَ التأريخ الإسلاميّ. إن أطفالَ «فلسطين» أحْيَوْا سنّة «رافع» و«سمرة» رضي الله عنهما، أطفالٌ صِغَارٌ لقَنُوا قادتَنا وساستنا شرفَ الجنديّة وشرفَ حمل السلاح، عَلَّمُونا كيف نحسّ بملمس الرصاص، وكيف نعتنق الموتَ ونضمّه بين أذرعنا باسمين باسلين، طامحين شامخين، فرحين مُهْتَزِّين.

لقد أدرك هؤلاء الشبابُ والأطفالُ – الذين لم تُؤَثّر فيهم وسائلُ الإعلام وأساليبُ التعليم العلمانيّ التي عَمِلَتْ على زرع الرضا بالأمر الواقع والاغتصاب الصهيونيّ لفلسطين – أنّ الحريّة ثمنها غالٍ للغاية، وأنّ طريقَ الإباء والاستقلال والعزّ مفروشة بالأشواك بل بالتضحية القاسية.

المسلمون في كل مكان والشعب الفلسطيني أثبتوا أنهم يرفضون حالة الذل والاستسلام

الشعب الفلسطينيُّ بكل فئاته وأطرافه – عَبْرَ تضحياته – والمسلمون في كل مكان – عَبْرَ تظاهراتهم ومساندتهم وتأييداتهم – أثبتوا أنهم يرفضون حالة الضعف والتخاذل والهوان التي يُرَادُ فرضُها على الأمتين العربيّة والإسلاميّة وعلى الشعب الفلسطينيّ خصوصًا.. إنّ الشعوبَ الإسلاميّة لتَوَدُّ من القادة والحكّام أن يتحمّلوا المسؤوليّة، وأن يكونوا على مستوى إباء الضيم، وأن ينهضوا لأخذ الثأر من الخنازير والكلاب التي تحاول أن تنهش عِرْضَ الأمّة، وتغتصب أرضَها المباركة، وتَدَعَها راكعة خاضعة تلعق أحذية الصهاينة التي تدوس بها كرامة الأرض التي بارك الله فيها.

يجب أن لا تذهب الدماءُ الزكيّةُ التي أُريقَتْ عَبْرَ الخمسين عامًا الماضية وفي الانتفاضة الحاليّة من الأجسام البريئة، أجسامِ أطفال ما تحت ١٨ عامًا، هدرًا.. يجب أن يأتيَ الثأرُ بشكل يردّ الاعتبارَ، ويغتاظ به الصهاينةُ الكفّار، ويلحسوا التراب، ويَعُضّوا بنام الندم، ويسقطوا في مهاوي الذل والهوان، ويذوقوا اللعنَ الذي سَلّطه الله عليهم.

دماء «رامي محمد جمال الدرة» – ١٢ عاما – وزملاؤه الأقلُّ سنّاً منه أو الأكثر منه بقليل ينبغي أن تلاحق الظلامَ، وتُبَارك الصباحَ، وتُدَابر خفافيشَ الليالي التي عاثت الفسادَ، وعَكَّرَتِ الجوَّ بنتنها المعهود.

ينبغي أن تُثبت الاستقلالَ، وتستأصل زرعَ الظلم الخبيث، وتقمع الظالمين، وتنتصر للمظلومين، وتُدَافِع عن المسحوقين، وتفتح الطريقَ أمام المجاهدين، الصابرين المحتسبين، الذين يعرفون لذّةَ الموت في سبيل الله، ويُدركون الطعمَ الكريهَ للحياة مع الذل والعيش مع الهوان، ويَتَبَيَّنُون الفرقَ بين الملمس الناعم في جسم الحيّة والملمس الخَشِن في الرصاص الذي يُمِيْتُ الغازيَ من أجل رضا الله، فيدخل جنَّة ربّه راضيًا مرضيًا.([٢٣])

تحيّة دموع ودُعاء إلي أطفال الدماء والأشلاء

كان تدنيسُ زعيم حزب «الليكود» اليمينيّ الصهيونيّ «أرنيل شارون» الخبيث المهين وَرِيثِ أسلافه الخنازير والقِرَدة وعَبَدةِ العِجْل والطاغوت وقَتَلة الأنبياء، للمسجد الأقصى وسط ثلاثة آلاف شرطيّ صهيونيّ في الثامن والعشرين (٢٨) من سبتمبر: أيلول ٢٠٠٠م الموافق ٢٧/ جمادى الثانية ١٤٢١هـ : الخميس ، بمثابة جسّ نَبْض الأمّة الإسلاميّة واستعلام مدى الغَضَب لديها حِيالَ هذه الجريمة النكراء والجراءة الخرقاء، ضمنَ خطوة مكشوفة لتمهيدٍ سافر لهدم الأقصى وبناء الهيكل المزعوم عليه .

وقد وَاجَهَ الفلسطينيون – وهم أصحابُ الدار والمُسْتَهْدَفُوْنَ المُبَاشِرُون للعدوّ الصهيونيّ اللعين – خصوصًا والمسلمون في العالم كلّه عمومًا ، هذه الجراءةَ الشارونيّة الصهيونيّة الشنعاءَ بغضبة عارمة ساحقة.. هبَّ الفلسطينيون ولاسيّما الشبابُ للردّ على هذه الزيارة بالاستنكار العمليّ – لا القوليّ المُجرَّد الذي تعوّده زعماؤُنا وقادتُنا وملوكُنا وحكامُنا.

وهَبَّ المسلمون العربُ والعجمُ على السواء يقفون بجانب إخوتهم الفلسطينيين بالقلوب والقوالب، وبإبداء الغضب، وبالمظاهرات الصارخة، والمطالبات الواضحة بمقاطعة الصهاينة على جميع الأصعدة وبمقاطعة حليفتهم الاستراتيجيّة والعسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة والدبلوماسيّة: «أمريكا» التي هي اليوم العدُّو رقم واحد – كإسرائيلَ تمامًا – للمسلمين والعرب أجمعين. وذلك حقيقةٌ إن لم نعترفْ بها حالاً، فسنعترف بها مستقبلاً بعد ما يُقلِت منّا الزمامُ كليًّا، ولاتَ حينَ مناصَ، ولاتَ ساعة مندم!.

([٢٣]) كلمة العدد، مجلة الداعي، العدد: ٨، السنة: ٢٤، شعبان ١٤٢١هـ = نوفمبر ٢٠٠٠م .

بقلبٍ حزين حزنًا لا يكاد يصفه تعبيرٌ بليغٌ، وعينٍ دامعة دمعة لا تكاد تستوعبُها أيُّ صياغة بارعة للأسلوب والأداء، تابعتُ وتَابَعَ معي ملايينُ ملايين المسلمين في العالم عَبْرَ الأسابيع الماضية التي أثبت فيها الشبابُ والأطفالُ الفلسطينيون: أشبالُ الإسلام وأبناءُ أمة محمد عليه الصلاة والسلام، غيرتَهم الدينيّة وبسالتَهم الإيمانيّة؛ فواجهوا رصاصاتِ الصهاينة بصدور مكشوفة، ورؤوس مُعَمَّمَة بالأكفان، وقلوب مُدَجَّجَة بأسلحة الإيمان.. تابعنا أنباءَ الاشتباك الدائر بين الصهاينة الفَجَرة الكَفَرة الفَسَقة أراذل البشر وبين الفتية الذين آمنوا بربّهم وزادهم ربُّهم هدىً.

صغار الإسلام يتسابقون إلى الموت بأسرع من تسابقهم إلى اللعب الثمينة

واللهِ العظيمِ، غَلَى الإيمانُ في قلبي، وانهمرت الدموعُ من عَيْنَيَّ، ولأمَتْني نفسي آلافَ المرات، وعَيَّرَتْني حقًا بأني لا أقدر إلاّ على رصف هذه الكلمات المتقطّعة المنثورة المتكسّرة، قابعًا في حجرةٍ آمنةٍ، بعيدةٍ آلافَ الأميال عن أرض المعركة، وساحة الوغى، وموقفِ الموت الزُّؤَام، ومشهد الملحمة الإيمانيّة، ومعمل الفرز البشريّ، ومُخْتَبَر العقيدة والغيرة، والمِحَكّ القائم لوضع الفرق بين المعادن الإنسانيّة والهمم الدينيّة.

صغارُ الإسلام يتسابقون إلي الموت بأسرَعَ مما كانوا يتسابقون إلى اللُّعَب الثمينة والدُّمى الزاهية الأشكال الصارخة الألوان*.. يتسابقون إلى الشهادة، إلى الحياة الأبدية، إلى المرضاة الربانية، إلى الحُور العِين، إلى جنّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضَ، إلى شِراء أنفسهم ابتغاءَ رضا الله الذي لا تعدله قيمة على وجه الأرض مهما غَلَتْ* وعَلَتْ.

لقد أكد د. «رياض الزغنون» وزيرُ الصحة الفلسطيني أنّ التحاليلَ والدراسات التي أُجْرِيَتْ على نوعيّة تركز الإصابات التي نَتَجَتْ عن إطلاق الصهاينة الرصاصَ على الفلسطينيين، بيّنتْ أن نسبة إصابة الأطفال تحت سن ١٨ تتراوح ما بين ٥٢٪ إلى ٦٠٪ .

مَن الذي علّم هؤلاء الصغارَ درسَ الغيرة والإيمان، والتسابق والتدافع للموت في سبيل الدفاع عن الدين، عن المقدّسات، عن الأرض المباركة: أرض الإسراء والمعراج.. من الذي أشعل قلوبَهم بجمرة اليقين وجذوة الجهاد.. من الذي عَمَر صدورَهم بالحسّ الإسلامي الفاعل، والقوة الإيمانية الدافعة، في العصر الذي أُعْمِلَتْ فيه جميعُ حيل العَلْمَنَة والعَوْلَمَة* لتفريغ قلوبهم وعقولهم من جميع شِحَنَات العقيدة، حتى يعودوا باردين لا يُحرّكهم حادي الإيمان وداعي الإسلام ومنادي الجهاد.

إن ربّ «رافع بن خديج» و«سمرة بن جندب» و«معوذ» و«معاذ» ابني «عفراء» رضي الله عنهم هو الذي أفْعَمَ قلوبَهم بالإيمان، وزَيَّنَ في قلوبهم الرغبة في الجهاد من أجل الدفاع عن أرض الإسلام،

وكَرَّهَ إليهم التقاعدَ والتقاعسَ رغمَ جميع محاولات المُطبِّعين والمُطبِّلين من عشّاق الجاه والكرسي وطالبي العزّ الزائل على أشلاء الأبرياء من بني جِلْدَتِهم.

شباب وأطفال يخوضون معركة اللحم ضدّ الحديد

إنّ استشهاد أطفال ١٨، و ١٢ عامًا، و ٩ أعوام، أعاد إلى ذاكرة الأمة الإسلاميّة أيّامَ المجد والفَخَار التي ظلّت تُعايشها في فترات من الزمن، عندما خاضتِ الجهادَ الصادقَ، وقدّمت فيه نذورَ الدم الزكيّ، من أجل الدفاع عن المشاعر والشعائر وحُرُمَات الدين.

شبابُ وأطفالُ «فلسطين» خاضوا عَبْرَ أيام وليالي الأسابيع الماضية معركة اللحم ضدَّ الحديد، والحجارة ضدَّ الدَّبَّابات والطائرات والصواريخ والآليّة العسكريّة الضخمة .

إنّ الحجاةَ لا تُقاوم الرصاصَ المُسَدَّد إلى الصدر العاري البريء؛ ولكنّه حيلةُ العاجز، حيلةُ المؤمن الغيور على عرضه الذي حَاوَلَ أن يَسْطُوَ عليه فاسقٌ مُسلَّح ماكرٌ خبيثٌ ، وقعد عن نصرته «الكبارُ» الذين بأيديهم جميعُ إمكانيّات الردّ بالمثل أو بأكثرَ منه.

رمز الاستشهاد محمد جمال الدرة

وإذا كان استشهادُ أكثرَ من ١٢٠ فلسطينيًا، في هذه الانتفاضة المباركة، لحدٌ كتابة هذه السطور، أمرًا خطيرًا، جَعَلَ الأمة تشتعل حماسًا واتّحادًا وتضامنًا وترابطًا – ما عدا القادةَ والساسة الذين تحجّرتْ قلوبُهم وعقولهم وأفكارهم، والذين دائمًا يعيشون في وادٍ غير الذي يعيش فيه الجماهيرُ المسلمةُ في العالم – فإنّ القتل المُتَعَمَّد للطفل «رامي محمد جمال الدرة» – ١٢ عامًا – كان الأصرخَ دلالةً على العقليّة الصهيونيّة الإجرامية، والوحشيّة النادرة التي يمتاز بها قَتَلَةُ الأنبياء هؤلاء الذين لَعَنَهم اللهُ وغَضِبَ عليهم وجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ.

ذلكم الطفلُ البريءُ الذي قتله الصهاينةُ في حضن والده الذي رَوَىٰ بنفسه لحظاتِ القصة الدامية المُبْكِية بما يلي:

«كنت أنا ومحمد ذاهِبَيْن لمعاينة سيّارة كنتُ أنوي شراءَها، وخلالَ مرورنا في الشارع فُوْجِئْنَا بإطلاق نار يأتي علينا، فرَكَضْتُ أنا ومحمد، واختبأنا خلفَ الكتلة الإسمنتية، هربًا من الرصاص الذي يُطْلَقُ علينا؛ حيثُ كانت الرصاصاتُ تُطْلَقُ علينا من قبل جنود إسرائيليين كانوا قاصدين إصابتَنا. حاولتُ خلالها حماية محمد رافعًا يدي، مستغيثًا بوقف إطلاق النار نحوَنا، فلم يُجْدِ ذلك نفعًا. واستمرّ الجنودُ في إطلاق النار نحوَنا، فاضْطُرِرْتُ لاستعمال الهاتف النَّقَّال، واتّصلتُ بصحفيّ أعرفه لإرسال سيارةِ إسعافٍ لإنقاذنا، وعندَ وصول السيارة قام الجنودُ بإطلاق النار عليها، مما أدّىٰ إلى إصابة السائق،

مما اضطرّني إلى أن أحمي محمدًا بتلقي الرصاص بيديّ وبجسدي؛ ولكن إحدى الرصاصات نَفَذَتْ إلى جسدي وأخرى نَفَذَتْ إلى قلب محمد.

وتَابَعَ والدُ الطفل «رامي محمد جمال الدرة» وهو يحاول التغلُّبَ على إصابته:

«ضاقتِ الدنيا بي، ولم أدر ماذا أفعل؟؛ فابني بين يديّ وهو مصابٌ ويحتاج إلى إسعاف، والطلقاتُ الناريّةُ مستمرّةٌ باتجاهنا، فرفعتُ يدي لمصدر النيران، وصرختُ عليهم بالتوقف وأنّ ابني سيموت؛ لكن لم يتوقف ذلك؛ بل زادت النيران باتّجاهنا، حينَها قال لي ابني: يا أبي اِحْمِ نفسَك، وأنا سأكون بخير، قل لأمّي أنا بحبها.

قال جمال الدرة والدُ الطفل:

«لم أتحمّل ذلك، وناديتُ عليه، غيرَ أنه استُشْهِدَ بين ذراعيّ، وبعدَها فقدتُ الوعيَ، ولم أعرف ماذا حَدَثَ» .

وقال مراسلُ التلفزيون الفرنسيّ الذي وَفّقه اللهُ أن يتمكّن من التقاط صورةِ المشهد التي أفزعتِ العالمَ كلّه، وشكّلتْ دلالةً حيّةً على وحشية قَتَلةِ الأنبياء.

«كانت المنطقةُ فارغةً تمامًا، وكان من الواضح لكل من ينظر أن هناك طفلاً ومعه شخصٌ؛ ولكن كما يبدو، كان الهدفُ إبادةَ كلٍّ من في المنطقة» .

سائقُ الإسعاف الفلسطينيّ بسّام فايز البلبيسيّ – ٤٥ عامًا – شَاهَدَ الطفلَ ووالدَه، يستصرخان الجنودَ الإسرائيليينَ عدمَ إطلاق النار باتّجاههما، وتَوَجَّه نحوَهما لإنقاذهما؛ ولكنَّ رصاصَ القناصة الإسرائيليين عَاجَلَه، فاخترق نافذةَ سيارته الأماميّة، وقتله على الفور. (رسالة الإخوان اللندنية).

لقد رأيتُ أنا كاتبَ «إشراقة» هذه، صُوَرًا تَوضِح مشهدَ استشهاد الطفل البريء، كيف يختبيء وراءَ ظهر أبيه مُنْتَحِبًا، ثم يلوذ بذراعيه، ثم يموت في مهده.. مشهدٌ لن يراه ذو قلب إلاّ ويبكي دماءً لا دموعًا، ولن يشاهده مسلمٌ يؤمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ إلاّ ويفور الدمُ في عروقه وتَغْلِي الغيرةُ في صدره، ولا يسعه إلاّ أن يَلْعَنَ الصهاينة ومن يساندهم قولاً أو فعلاً أو بهما معًا، أو بأيّ طريقة من طرق المساندة – لعَنَ اللهُ اليهودَ ومن يقف وراءَها ولاسيما «أمريكا» التي لا تستحيي من الوقوف بجانبهم بشكل علنيّ مكشوف، ولن تستحيي مهما أبادوا جميعَ الفلسطينيين والعرب!!.

إن المُصَوِّر المغوارَ الذي صَوَّرَ المشهدَ، «طلال أبا رحمة»، وهو مُصَوِّرُ التلفزيون الفرنسيّ – القناة الثانية – قال في تصريح له:

«إنّه كان لايَبْعُدُ عن الطفل ووالده سوى أربعة أمتار؛ لكن وابلَ الرصاص الذي كان يتطاير قريبًا

منه، مَنَعَه من تقديم المساعدة لهما، إنّ الأبَ ظلَّ يحمي ابنَه بيديه وجسده أكثر من ٤٥ دقيقة، وظلّت الكاميرا مُسَلّطةً على الطفل الذي كان يَنْتَحِب، لتُصَوِّرَ فيلمًا أشهد العالمَ على جرائم اليهود وقُبْحِهم.

«وحينَ تقدّمت سيارةُ الإسعاف لإنقاذ الأب وطفله، رَشَقَها الجنودُ الصهاينةُ بالرصاص، فقتلوا السائقَ على الفور .

«أعتقد – لايزال الكلام للمُصَوِّر «أبي رحمة» – أنه ينبغي على المُفاوضين الفلسطينيين والصهاينة مُشَاهَدَةُ الفيلم عندما يَلتَقُون في المرّة القادمة؛ لأنّ عددًا كبيرًا من المدنيين قُتِلُوا من أجل لاشيء» (المجتمع الكويتية) .

هذا المشهدُ المُؤْلِمُ أثار سخطاً عالميًا، وجَعَلَ صحيفة «الإنديدي بندت» البريطانيّة تصف المشهدَ بأنّه «صورة ستظلّ تُسَيْطِرُ على مُخيّلة العالم باعتبارها مُؤلِمة ومُؤَثِّرة» أمّا المذيعة المشهورةُ «كارول سيمبسون» من تلفزيون A B C الأمريكيّ فقد عَرَضَتْ مشهدًا من الفليم في نشرتها الأخباريّة قائلة لمُشاهِدِيها في مقدمة الخبر: «إن ما سيشاهدونه بعد قليل «لقطاتٌ صعبة».

النماذج كثرت واطّردت

وإذا كان الشبابُ والأطفالُ الفلسطينيون بكل فِئاتهم سَجّلُوا صُوَرًا حيّة ونماذجَ بطوليّة نادرةً ومشاهدَ فِدَائِيَّةً فذّةً تركتِ الشيوخَ والكهولَ في العالم كلّه حيارى، فإنّ استشهادَ الطفل ذي الربيع الإثْنَيْ عَشَرَ: «رامي محمد جمال الدرة»، لم يكن الموقفَ الوحيدَ الذي أثار اهتمامَ العالم وتَرَكَ للجميعَ درسًا لا يُنْسَى، وعبرةً لا تَمَّحِي؛ وإنما النماذجُ كَثُرَتْ واطّرَدَتْ خلالَ هذه الانتفاضة المباركة:

فمحمد أبو عاصي ابنُ التاسعة، مشاركٌ عنيدٌ في كلّ الهبات السابقة من أجل الأقصى، لم يُرْهِبْه الرصاصُ عن اقتحام أسلاكِ العدوّ الشائكة؛ فخَرَّقَ الإطارات، وفتَحَ الطريقَ أمام زملائه لتُكْنَات العدوّ، فكان نصيبَه رصاصاتٌ غادرةٌ في القلب أسقطته شهيدًا، وتلقفت روحَه الزكيّة أيدى ملائكة الرحمن مُضَمَّخَةً بأريج الجنة وعَرْفِ الفردوس ورَيّا النعيم الذي لايَنْفَد.

و«البراءُ محمود» ابن الإثني عَشَرَ عامًا، عَبّأ حقيبتَه بالحجارة، وحَمَلَ مُصْحَفًا وزجاجة ماء وسكينًا، وتَوَجَّه في الصباح الباكر من «الأردن» قاصدًا أرضَ «فلسطين» للجهاد، طالبًا السماحَ من أمه وأبيه في رسالة تَرَكَها إليهما، وسار في طريقه صاعدًا عدّةَ مُرْتَفَعَات حتى سَقَطَ من فوق أحدَها، ولم ينقذه إلاّ بعضُ الأعراب. يقول لوالده في الرسالة: أنا ذهبتُ إلى «فلسطين» للجهاد في سبيل الله، وأرجو أن تُسَامِحَني*؛ لأني أخذتُ بعضَ الأغراض والعَشَرَةَ دنانير.

والشاب «محمود سبيته» يتسابق إلى الشهادة مع المتسابقين ويُوَفِّر لأسرته قوتَ العام، ويسلّم

زوجتَه كلَّ ما لديه من مال، وعندما تُلِحُّ عليه في الرجاء أن يُرَاجِعَ نفسَه* قائلة لـه: لمن تتركنا؟. قال: لله! ثم مَضَىٰ شهيدًا.

فتىً في الرابعة عَشَرَ من عمره يسقط شهيدًا على أرض «نابلس» في ٣٠ من سبتمبر وآخرُ في الثانية عَشْرَةَ يمضي شهيدًا في «غزة» في ١/ من أكتوبر.

وفي «أم الفحم» وحدَها يصاب يوم ٢/ أكتوبر ٦٥ عربيًا ويُستَشْهَدُ مُوَاطِنٌ فلسطينيٌّ شابٌّ، وشابٌّ غَضُّ الإهاب عمرُه سَبْعَةَ عَشَرَ عامًا (١٧) في الضفة الغربية.

في الرابع من أكتوبر يرتفع عددُ الأطفال المُستَشْهَدِين عشرين طفلاً.

وذاك الطفل «وليد محمود بهلول» البالغ من العمر ٩ سنوات، المُصاب بتمزُّق في أمعائه، وقطْع في شريان الفخذ الرئيس من جَرَّاء العدوان الصهيونيّ على أبطال الانتفاضة.

يقول من فوق سريره في قسم العناية المُكَثَّفة* في مستشفى ناصر بـ«خان يونس»:

«أتَمَنَّى أن أقف على قَدَمَيَّ، وأعود لمدرستي، وألعب مع أصدقائي».. قالها بصوت منخفض وجسم يرتعش وبراءةٍ حزينةٍ وطفولةٍ لا تكذب أبدًا.

أصيب «وليد» برصاصة مكتومة الصوت، محرَّمة دوليًا، فيما كان يجلس فوق كتلة إسمنتيّة يُتَابع بشَغَف الشبانَ الفلسطينيين وهم يزيلون العَلَمَ الإسرائيليَّ عن الأسلاك الشائكة على صَفَّيْ الشريطِ الحدوديّ الفاصل بين «فلسطين» و«مصر» في مدينة «رفح» قبالة مخيم «يبنا» الذي يسكنه. وفجأةً صَرَخَ وليد: «أي» وارتمى على ظهره، واصطبغت ملابسُه بالدماء.

الدماء البريئة يجب أن تُعَلِّم رجالنا كيف يموت الشهداء الأباة

إنّ الانتفاضة بما انطوتْ عليه من صور رائعة للاندفاع للجهاد والاستشهاد من قبل الفتية الذين ازْدَهَرَ الإيمانُ في قلوبهم، وتَرْعَرعَ اليقينُ في صدورهم، وبَرقَ الأملُ في عيونهم، وَعذُبَ نشيدُ الصدق والولاء لسيّدنا محمد ﷺ على أفواههم، وعَظُمَتِ البراءَةُ في قرارة نفوسهم من المتقاعدين المتخاذلين، المُطبِّعين المخدوعين، المخادعين السادرين في أضْغَاثِ أحلام، قد أكَّدَتْ مرةً أخرى بما لا مزيدَ عليه كالمرّات السابقة الكثيرة، أنّ الشعبَ الإسلاميَّ والشعبَ الفلسطينيَّ كليهما لايري طريقًا إلى تحرير «فلسطين» وإنقاذ الأقصى من مخالب العدوّ اللعين إلاّ طريقَ الجهاد، وأنّ العدوَّ الصهيونيَّ لا يفهم لغةً إلاّ لغةَ القوة، ولا يُبَالِي بعهد وذمة إلا إذا رأى العصا تَقَعُ عليه.

الدماءُ البريئةُ التي أُريقَت بسخاء عَبْرَ نحو شهر يجب أن تُعَلِّم رجالنا كيف يموت الشهداء، يجب أن تُقْلِقَ مضاجعَنا، وتُطِيرَ النومَ من أحداقنا، وأن تحفر في مخيلتنا مشاهدَ المأساة التي عاشها الأطفالُ

والشبانُ فداءً للأرض المباركة والأقصى الأسير والمسرى النبويّ الحزين، يجب أن تُلقّننا كيف نحب الموتَ، ونؤثره على الحياة في سبيل استرداد العزّ واستعادة المجد، يجب أن تُعلّم قادتنا وسادتنا المتربّعين على عروش الحكم وكراسي السلطة أن يتأكدوا أنّ العز المُؤَثّلَ والمجدَ العريقَ لا يبقى بمنجاة من الأذى ما لم يُرَقْ على جوانبه الدمُ؛ وأن العزّ لله ولرسوله وللمؤمنين، وليس للمنافقين المُستَجْدِيْن السُؤلَ من «أمريكا» و«بريطانيا» أو «فرنسا»؛ وأن الذنبَ – وهو ههنا بنو صهيون – لن يغيّر طبعَه، ولن ينحرف عن سيرته، ولن يَشُذَّ عن سريرته، مهما تِهْنَا في الأحلام وشَرَّقَتْ بنا الأماني وغَرَّبَتْ.

هل تَقَيَّدَ الصهاينةُ بأيّ وعد من الوعود التي أُلزِمُوْا بها عَبْرَ الاتفاقيّات المُبْرَمَة من «أوسلو» إلى «مدريد» إلى «كامب ديفيد» إلى «شرم الشيخ» إلى عدد من المُنْتَجَعَات التي صارتْ رمزًا لإخضاع العرب أمام الصَّهَاينَة؟ لم يلتزموا به، لأنهم تَنَاوَلُوا جميعَ الاتفاقات بالتأويل الذي يُحَقّقُ مطامعَهم ونواياهم الشريرةَ، ويجنّبهم الاضطرارَ لتحقيق أيّ مطلب يخصّ الفلسطينيين.

فلماذا لا نزال نَرْضَى بالذلّ والدنيّة، لماذا نخاف «أمريكا»، ولا نخاف اللهَ؟ لماذا لا نرضى الجهادَ ونرضى التردّدَ على أعتاب الشرق والغرب اللذين يتربّصان بالإسلام والمسلمين الدوائرَ، ويَشْمُتَان بنا كلّما أصابتْنا خسارةٌ ؟!.([٢٤])

الحق المغصوب بالقوة لن يُسْتَرَدَّ إلاّ بالقوّة

الشيوخُ والرجالُ والمُسنّون على اهتماماتهم وهوَايَاتهم، قد يكونون «عَقلانِيِّيْنَ» لايستجيبون لفتوى القلب، قد يكونون «ثاقبي النظر» «حاملي البصر» لا يُلبُّوْنَ داعية الضمير ومناديَ الإباء والغيرةِ الإسلامية؛ لأنّ «ثقوبَ النظر» و«حدّةَ البصر» تحول دون الاندفاع لدواعي العاطفة مهما كانت نبيلة سامية.

أمّا الأطفالُ ما دون ١٨ عامًا، فهم لايعرفون «المصالحَ» ولايعرفون «نفاقَ العقل» ولايعرفون مشورةَ «بعد النظر» ولا يدركون فتوى صادرةً عن اللاّحَيَاء اللاّإباء ومُرَكّبِ النقص والنظرةِ الاعتداليّة والسياسةِ الاتزانيّة.

إنّهم لايعرفون إلاّ أنهم سَئِمُوْا استجداءَ «السلام» من بلاط الغرب والبيت الأبيض و«أسود» الأمم

([٢٤]) إشراقة ، مجلة الداعي، العدد ٨، السنة ٢٤، شعبان ١٤٢١هـ = نوفمبر ٢٠٠٠م .

المتحدة، أعني المسكين أمينَها العامَّ الحاليَ الذي لونُه من سواده بحيث لا تبدو عليه علامة للغضب والرضا فضلاً عن الإباء.

إنهم – لكونهم واقِعِيِّيْنَ أكثرَ من جميع «الواقِعِيِّيْنَ» – لا يعرفون إلا الغطرسة الإسرائيليّة، والعُنْجُهيَّة الصهيونيّة، ومؤامرةَ الأعداء، وتخاذلَ الأصدقاء، وتطاولَ الليل البهيم الحالك السواد، وتأخُّرَ الصبح الأغرّ الأبلج المُؤَمَّل المُنْتَظَر؛ تأخّرَه رغمَ محاولات السلام، ونعرات السلام، واتفاقيّات السلام، وإجراءات السلام.

إنهم لا يعرفون رغم التقيّد بـ«الأمن» والخضوع المُكْرَه لـ«للسلام» إلا التشريدَ والجلاءَ، والتجويعَ والتقتيلَ، والظلمَ الفاحشَ، وتبجّحَ القويِّ الخبيثِ المهين من سلالة القِرَدَة والخنازير وعَبَدَة الطاغوت، وصبَّه الويلَ عليهم دونما ذنب – إلا ذنب المطالبة الضعيفة بالحقّ المغصوب والعزّ المفقود – عبر المدفعيّات والطائرات، والدبّابات والحَوَّامَات، والآليّة العسكريّة المُدَمِّرة .

إنهم لا يعرفون إلا أنّ الأراضيَ المُبَارَكَ فيها والمسجدَ الأقصى المُبَارَك حوله والحقوقَ العربيّة المهضومة، والنخوةَ العربيّة المُهَانَة، والكرامة الدينية المُضَاعَة؛ تزداد كلَّ يوم تَعَرُّضًا لمزيد من إجراءات السيطرة والغمط والتدنيس على مرأى ومسمع من العالم كله، رغمَ الصرخات المكتوبة الخافتة من قبل ما يُسَمَّى بـ«الأمم المتحدة» والنداءات الماكرة ذات الانحياز السافر والنفاق المفضوح والتفسيرات المغلوطة من قبل ما يُسَمَّى بـ«جمعية العفو الدولي» و«جمعية حقوق الإنسان».

إنهم يعرفون أنّ «الصبر» على الظلم، وغمط الحقوق، وقتل الأمهات والجدّات والأخوات، وذبح الآباء والأجداد والإخوان، وتدنيس المساجد والمُقَدَّسات، لم يُجْدِ نفعًا، ولم يُعِدْ حقًّا، ولم يدفع ظلمًا، ولم يجلب من الرأي العالمي ثناءً، ولم يستوفِ من الغرب «العادل» – الداعي إلى «ضبط» النفس والأعصاب، والاحتكام إلى العقل – إجراءً عادلاً وتعاملاً منصفًا.

مشاهد رائعة في فلسطين المباركة

فنهضوا ليصنعوا ما يستطيعون، فوقفوا بكل عزّ وإباءٍ، وشموخ وكبرياءٍ، بصدور عارية، وأجسام عُزَّل، لاسلاحَ بأيديهم إلا الإيمان القويّ الخالص الذي يقتحم ساحة الموت الزُّؤَام دونما استشعار لخطر، وتحسّس لخوف، وقراءةٍ لفتوى العقل الماكر؛ وإلا الحجارة التي تتحوّل «سلاحًا مُدَمِّرًا».. وقفوا أمام جيشٍ غادرٍ فاجرٍ نجسٍ ظاهرُه خبيثٌ باطنُه مُسَلَّح بكل نوع من أحدث الأسلحة .. لايُرْهِبُهم الموتُ الراقص، والرصاصات الحيَّة، فلا يتراجعون ولا يُوَلُّون.

إنها مشاهدُ رائعة في «فلسطين» المباركة، أطفالٌ أبرياءُ يهجمون بالحجارة على الجيش الحاقد

الحاشد.

إنهم سَطَرُوا ولا يزالون يَسْطُرون معانيَ جديدةً خالدةً وملاحم إيمانيّةً رائعةً.

إنّهم رفضوا أن يكونوا «ظاهرةً صوتيّةً» كما اعتادها كبارُنا وقادتُنا وزعماؤُنا.. صرخاتٍ عميقةٍ من أعمق مكان في الحنجرة، وإجراءاتٍ ضئيلةٍ تافهةٍ لا تُسمِن ولا تُغْنِي، ولا تردع عدوًّا، ولا تُشَجِّع صديقًا.

أكثر من ٢٠٠ شهيد وأكثر من ٣٦٥٠ جريحًا فلسطينيًا، حصيلةُ الجريمة النكراء التي ارتكبها الصهاينةُ في محاولة قمع انتفاضة الأقصى لحدّ كتابة هذه السطور يوم: الخميس ١٩/ شعبان (بالتقويم الهندي) ١٤٢١هـ الموافق ١٦/ نوفمبر ٢٠٠٠م .

وقد شَهِدَ الأطبّاءُ أنّ الجنودَ الصهاينة يستخدمون الرصاصَ الحيَّ، مُستَهْدِفِين النصفَ العلويَّ من أجسام الأطفال والشباب الذين تتراوح أعمارُهم ما بين ٧ إلى ٢٩ سنة .

مَنَاظِرُ الدماء المسفوحة على أرض «فلسطين» هَزَّت المسلمين في العالم كله، وحرّضتِ الأطفالَ والشبابَ على الدخول ضمنَ العمل الجهاديّ المبارك الذي بدأه الأطفالُ والشبابُ الفلسطينيون، الذين تأكّدوا أن أشجارَ الوطن الغالي المقدّس لا تَنْبُتُ ولا تنمو ولا تخضرّ ولا تُورق إلاّ بالدم القاني المُتَفَجِّر من أجسام الأطفال والشباب العرب الذين هم رأسُ مال هذه الأمة، ومادّتُها الأصيلة، وسَنَدُها القويّ.

أطفالُ وشبابُ «فلسطين» لم يتغرَّبوا رغمَ عمليّة التغريب، ولم يَتَعَلْمَنُوا رغمَ جميع محاولات العَلْمَنَة عَبْرَ هذه السنين العِجاف، لم تُغيّرهم ثقافةُ المُثَقّفين المنهزمين الساقطين في وسط الطريق أو بدايته. فها هم أولاء يذوقون طعمَ الشهادة، ها هم يندفعون إلى الطريقُ الذي سَلَكَه الشهداءُ الأحياءُ المنتزهون في رياض الجنة عَبْرَ التأريخ الإسلاميّ.

أطفال يتسابقون إلى درب الخلود

أطفالٌ ينطلقون سِرَاعًا إلى درب الخلود، إلى التسجيل في سجّل الخلود، إلى استرداد ماء الوجه الذي أضاعه «الكبارُ» و«الرجالُ».. أطفالٌ يغادرون بيوتَهم في الصباح الباكر بعد تناول شَطِيرةٍ على الريق، ويحملون حقائبَهم المدرسيّة، ويخرجون من بوّابات مدارسهم فيحدوهم منادي الجهاد إلى ساحة المعركة، فيخلعون حقائبَهم، ويتركون قرطاسيّتَهم*، ويندسّون بين المنتفضين، فلا يرجعون إلى بيوتهم في هذه الدنيا، وإنما يتبوّؤون مقاعدَهم في الجنة.

إنّ المحتشدين في «شرم الشيخ»، وفي «القاهرة»، وفي «الدوحة»، من الزعماء والقادة والساسة؛ لهم قرارُهم، لهم منطقُهم، لهم تعقُّلهم، لهم حكمتُهم وعقليتُهم، لهم تفكيرُهم المُتَخَاذِل المُتَهَادِي المتباطئ «المعتدل»؛ ولكنّ «أطفالَ الحجارة» لم يَرْتَقُوا بعدُ إلى مستواهم من «الواقعيّة» و«التعقل» وإدراك ما

يسمعون عنه كثيرًا لحدّ السآمة البالغة والمَلل الطويل من «موازين القوى» و«موازنة الرعب» و«القدرات العسكريّة» و«الترسانة غير العادية»؛ فاندفعوا ليصنعوا ميزانَهم بأنفسهم ويَستَغنُوا عن موازين سواهم، ولم يعرفوا وزنًا سوى وزن الحجارة في أكفّهم الصغيرة وبين أصابعهم الناعمة، وقصَدَ كلٌّ منهم ليُحَطّم رأسَ مُتَغَطرِس من الصهاينة الدُخَلاء الغُرَبَاء على هذه الأرض الطيبة.. إنهم يَسَرُّهم كثيرًا ويُمَتِّعهم جدًّا مشهدُ جنود الاحتلال الجبناء في الواقع، الشُجْعَان في الظاهر، وهم يتراكضون ضارطين* خاسئين، نجاةً بأنفسهم من حجارتهم المُسَدَّدَة التي يقذفونها إليهم على طريقتهم.

لقد ظلّتْ عقليّةُ «العقلاء» في كل زمن تختلف عن عقليّة الأبرياء الصادقين من المحبين والفدائيين والمُتَطوِّعِين، عُشّاق الموت، المتسارعين إلى التَبَوُّء في محراب الخلود. «العقلاءُ» دائمًا ظلّوا مُتَوَرِّطِين في قراءة «العُرْف» و «الاستحسان» و«الاستصلاح» وتغيّر الظروف . أما المحبون المُخلصون فظلّوا يَصْدُرُون في جميع خُطوَاتِهم عن فتوى القلب الحاني، والضمير الإيمانيّ، والإباء المتلهّب، والكبرياء المُتَشَبِّب.

أطفال الحجارة أثبتوا أن الترسانة الكبيرة لا تخيف شعبًا إذا نهض لاسترداد حقه

إن أطفال الحجارة وصانعي الانتفاضة، قد أكدوا لعقلاء العالم كلهم: العرب والعجم، المسلمين وغير المسلمين – وقد أكدت آخر الإحصاءات أنّ ٢٨٪ من شهداء الانتفاضة إنما هم من الأطفال – أنّهم واهمون جدًّا إذا كانوا يظنّون أن الآلة العسكريّة الضخمة والترسانة الحافلة بالدبّاباتِ والصواريخ والرَّاجِمَات والطائرات تستطيع أن تُخِيْفَ شعبًا، وتُقْعِدَه عن المطالبة بحق. فها هو ذا قد انتفض غيرَ مُبَالٍ بشيء منها، قد اندفع أعزلَ إلى رؤوس العُلُوْج* من الصهاينة يُحَطِّمُها بالحجارة، ويُنَكِّسها بذلّة وهوان، ويَحَطُّ أعلامَ الهزيمة عن الجدران.

هذا دورُ أطفال الحجارة وشباب الغيرة الإسلاميّة، الذين ظلَّ الإيمانُ مُتَأَجِّجًا في صدورهم رغمَ جميع المؤامرات والمحالات لنزعه منها، أمامَ الجيش اليهوديّ الذي بَيَّضَ وفَرَّخَ في رأسه الشيطانُ والطاغوتُ، والذي بَرعَ في تفجير القذائف الأمريكيّة في رؤوس الأطفال الفلسطينيين الأبرياء.

فأين دورُ دعاة السلام ورُعاته وأنصاره والمُتَوَرِّطين فيه إلى الرؤوس والآذان؛ لماذا انْزَوَوْا مع تصاعد الحرب الصهيونيّة ضدَّ الشعب الفلسطيني المؤمن الأعزل .. لقد سكت البريطانيون، وخفض الفرنسيونيون صوتَهم، وتراجع مُرَتِّبُوْ «أوسلو» النرويجيّون إلى الخلف، ولأزَمَ «الكنديون» والألمانُ صمتًا رهيبًا، ولحِسَ «الروس» ترابَ الذل والعجز الذي غَرِقُوا فيه منذ انهيار الاتحاد السوفياتيّ، ذلك أنّ مثلهم كمَثَل الشيطان إذ قال للإنسان: اكْفُرْ، فلمَّا كَفَرَ قالَ: إنّي بَرِيْءٌ مِنْكَ. إنّي أخَافُ اللهَ رَبَّ

العَالمِيْنَ.

لقد تَبَرَّأ كلٌّ من «الشيطان الأكبر» – حَسَبَ تعبير ملاليّ إيران – أمريكا وأذنابها وخراطيمها من دول الغرب كلّها من المتسارعين إلى إقامة السلام مع الصهاينة والغَرَام بها. ولم تَعُدْ إلا الحقائقُ الصارخةُ التي تنادي بملء الأفواه: أنّه صَدَقَ ربُّنَا الرحمنُ وكَذَبَ أولياءُ الشيطان، صَدَقَ اللهُ إذ عَرَّى اليهودَ في كتابه الخالد وتَحَدَّث في تفصيل وتكرار عن إخلافهم الوعدَ وقتلهم الأنبياءَ وأكلهم السحتَ وكفرهم بآيات الله وشرّهم المستطير وكونهم ملعونين في الدنيا والآخرة، وكَذَبَ الذين دَعَوْا إلى الثقة بهم وعَدَم الثقة بكتاب الله.

إنّ الأحداثَ الدامية المستمرةَ أكثرَ من شهر ونصف، كشفتْ عن أنّ الحماسَ المُضلّ المخادعَ لعمليّة السلام، إنما كان من أجل كسر عزلة إسرائيلَ وفرضها على واقع إقليميّ يرفض أطماعَها التوسعيَّة الخبيثة.

وإذا كانت مجزرةُ جيش الاحتلال الصهيونيّ ضدَّ الشعب الفلسطينيّ الأعزل لطمةً قويّةً على خدود جميع الواهمين والمُضلّلين والمخادعين فيما يتعلق بإقامة الصلح مع الصهاينة.

فإنّ الواجبَ على المسلمين العرب والعجم أن يُسَخِّروا جميعَ ثقلهم الماديّ والمعنويّ من أجل أن لا تهدأ الانتفاضةُ، ولا يتوقف الجهادُ، ولا تسقط الحجارةُ عن أيدي الأطفال؛ لأن الحقَ المغصوبَ بالقوة لن يُسْتَرَدَّ إلا بالقوّة. (٢٥)

* * *

(٢٥) إشراقة، مجلة الداعي، العدد ٩-١٠، السنة ٢٤، رمضان – شوال ١٤٢١هـ = ديسمبر ٢٠٠٠م – يناير ٢٠٠١م.